

ذهاب .. وإياب

علي رياح

رقم الإيداع في دار الكتب و الوثائق الوطنية (2470) - لسنة 2020

الطبعة الأولى

إلى روح الوالدة الغالية . .
 كانت (تطشُّ) ما تيسر
 من ماء في قدرها على
 قارعة الطريق وتسكب معه
 كثيراً من دمعها ، حين أحملُ
 حقيبتى وأهملُ بالسفر . .
 ثم تُسعدُ لحكاياتي حين
 أعود لأروي لها ما رأيت في
 بلاد الله . .

حقيبة .. في مطار !

ليس أمتع ، ولا أبهج للنفس من أن تجوب الدنيا ، فتطّلع على تجارب البشر ، وتعيش حياة غيرك ، وتندمج في مشاهد لم تكن مألوفة لديك!

هل جربت مرّة أن تتأمل صورة الطائرة وهي تجثم في غاية الاستمكان على أرض المطار في أي مكان من العالم؟ إنها صورة تمنحك القدرة على أن تتجول بخيالك في بقاع شتى ، حتى لو أنك لم تتحرك مترا واحدا عن الموضع التي تقف عليه قدماك..

صورة تمنحك قدرا عاليا من الأمل في أن تلتحق بركب العالم من حولك لتكتسب تجارب وخبرات ، وتشهد اندماجا بكل ما يخطر في بالك من صور وخيالات وحقائق وغرائب في أرجاء المعمورة .. فهذه الكتلة الحديدية الهائلة التي تمسك بالأرض مثل صقر قد ظفر بالفريسة ، تعطيك شعورا بالهيبة والمهابة ، فبفضلها فقط تستطيع أن تحلق في الأرجاء وأن تصل إلى غايات ربما لم تكن يوما مرسومة في خيالك ، أو في وارد مشاريعك!

إنه بالضبط الشعور الذي يغمرك حين تضع حقيبتك في مطار وتتحرك نحو مقعد في طائرة ، فأنت مقبل على حقيقة ربما كانت من قبل وهما ، وأنت مُقدم على مغامرة لها إطار مختلف حتى لو حسبتها رحلة هادئة وديعة لا تتعدى تفاصيلها الانتقال من مكان إلى آخر!

فبعض السفر نافذة للأمل ، ورغبة في الاطلاع ، واكتشاف للمجهول ، وفسحة للترويح عن النفس! وبعضه ذهاب المرء إلى حتفه ، حين يكون الانتقال من مكان إلى آخر رحلة إلى الجحيم ، وصراعا حقيقيا من أجل البقاء على قيد الحياة!

* * *

لاحقنتي فكرة إصدار هذا الكتاب منذ مدة ليست بالقصيرة ، لاسيما بعد أن اختمرت تجربتي الإعلامية وتمكنت من الوصول إلى نقاط كثيرة في العالم بصفتي الإعلامية لا بقصد السياحة والتجوال مثل بقية خلق الله!

وأنت حين تذهب في مهمة ربما إلى مكان لم يخطر في بالك يوما ، سيكون كل شيء جديدا أو غير مسبوق في منظارك .. الصعوبات .. المطبات .. المقالب .. الأخطار ، وهي كلها علامات مميزة للعمل الإعلامي لا بل إنها في كثير من الأحيان جزء لا يتجزأ من (التجربة) ككل ، لا يمكن فصلها عن مباراة أو بطولة أو رحلة تقود فيها فريق عمل تلفزيونيا يوثق للمشاهد ما لم يسبق أن رآه بأعين أو على الشاشة!

قبل هذه الفكرة التي تقترن بفكر الإعلامي ، وتشغله وتشاغله وتحدد له معالم الطريق ، لابد أن تدرك أنك في كل مرة بصدد الانغماس في حضارات وتقاليد وشعوب ، وعليك - لهذا السبب - أن تتكيف ، أي أن الثمن بعض أو كثير من المتاعب ، ولكن الخاتمة هي المتعة الاستثنائية ، ولهذا فالتجربة تستحق قدرا من المعاناة أو حتى التضحية .. وستجد نفسك في نهاية المطاف بعد حين من الزمن وأنت تراجع رحلة فيها الأوهال ، أنك في غاية الرضا ومنتهى القبول لكل ما جرى!

هذه هي نظرتي الآن إلى ما قد مرّ بي خلال رحلات إلى وجهات شتى ، خصوصا حين تتعامل بعض الدول الملتزمة - وأسميها الملتزمة - سياسيا مع الإعلامي على أنه زائر فضولي ثقيل الظل ، مريب النوايا ، له عين غير مرحب بها ، لهذا لا تبدي ارتياحا لوجوده على أرضها!

وهناك تفاصيل سأرويها كما عشتها ، كما حدث لي حتى قبل السفر إلى بلد العجائب (كوريا الشمالية) التي يستحيل على أي كائن أن يفكر مجرد التفكير في الوصول إليها ، فكيف بمن يجروء على اقتحام الصعب ليعيش الوقائع كما هي بعيدا عن أي تهويل أو تهوين إعلامي يلف البلد الأكثر سرية وحذرا وخطرا في العالم! وفي المقابل ، كان الانتقال إلى كثير من المجتمعات الوديعة نموذجيا .. فالبشر هناك تستقبلك وتقبلك زائرا وضييفا ، وكثيرا ما تصبح صديقا تفتح له الأبواب المغلقة ، وهذا كل ما يتمناه الإعلامي في عمله ، فلا قيود ولا حواجز إلا ما تقتضيه المهنية وسلامة النية والتصرف والتمسك بالأعراف التي تيسر مهمتك في مبتدأ الأمر ، وفي نهايته!

* * *

في هذا الكتاب ، وهو الرابع عشر لي في حياتي منذ مؤلّفي الأول عن دورات الخليج العربي قبل (34) سنة ، اعتمدت الصورة مؤشرا ومقياسا كما لو أنها وسيلة إيضاح لابدّ من حضورها لكي تكتمل التجربة ، ولكي يدخل إلى نفس القارئ شيء من اليقين بأنني أسرد التفاصيل دوماً مبالغة ..

والأكثر من هذا ، فإن الصورة في كتاب يندرج في إطار أدب الرحلات تتحول من ملامح وتفاصيل مطبوعة على الورق إلى وثيقة لها فعل السحر هنا .. فأنت تواجه القارئ دوماً بما تمكنت من التقاطه ليكون الشاهد هنا أكثر بلاغة من السرد والتفاصيل والكثير من العبارات الإنشائية التي يمكن اختزالها بالصورة - الوثيقة! ولا أدري على وجه اليقين والدقة ما إذا كان الإكثار من صوري في هذا الكتاب ، تطرّفاً أو ضرورة كي تكتمل

الصورة عند القارئ .. فأنا منذ دخولي عالم الصحافة عام 1980 ثم حقول الإعلام المختلفة ، أحرص على محاولة (وقف ثواني الزمن) وهو التعبير الذي درجَ المصورون على استخدامه في وصف الصورة! وبعد كل هذه المسيرة في دروب الإعلام ، يترسخ لدي اليقين بأنني كنت على صواب حين حرصت على جعل الصورة أولوية في كل محطة ، وعلى الاحتفاظ بها كل هذا الزمن ، كي تظهر في أوانها سواء على صفحات جريدة أو مجلة ، أو في كتاب كهذا الذي بين يديك!

في هذا الكتاب خصوصية؟! نعم .. فهو خلاصة تجارب عشتها بنفسي ، ولولا الخصوصية لما تحقق - في نظري - السقف المطلوب من المصداقية ، فأنا لا أصف مباراة من التلفاز ، ولا أكتب عن بطولة أعيشها في الميدان أو على المدرجات كما يعيشها غيري .. إنما أعرض هنا تجاربي الذاتية في مناطق هادئة وأخرى ساخنة تمكنت من الوصول إليها ، وقد حان الوقت المناسب كي أضع بعضها بين دفتي كتاب ..

أقول (بعضها) ، لأن ما يتيسر هنا جانب من الترحال عبر أصقاع الأرض ، وربما تكون لي عودة بمشيئة الله إلى رحلات .. ومحطات .. وتجارب أخرى لها تفصيلات خارج المألوف ، ولها طعم مختلف!

علي رياح

تشرين الأول - 2020



بعض من العمران يظهر الاكتفاء الذاتي

كل شيء ممنوع .. إلا مديح الزعيم !!

لا يمكن أن يخطر في بالك ، لا في منامك ولا في احلام اليقظة أن تضع قدمك يوما على أرض كوريا الشمالية .. هكذا أرددها قولاً واحداً!

ولكنني فعلتها بإصرار عجيب مهما كان الثمن الذي ينتظرني في بلد تهيمن عليه مفردات من قبيل : ريبة .. غموض .. أسرار .. تعقيم .. صمت .. ممنوع!

دخلت إلى السفارة الكورية في دمشق ، وسوريا من الدول العربية المحدودة التي تقيم كوريا علاقات دبلوماسية كاملة معها .. وكان يجب أن أعرف بنفسني..

قلت لرجل الاستقبال الذي كان وجهه جامدا يخلو من أية ملامح مثل رجال الامن الأشداء : أريد السفر إلى العاصمة بيونغ يانغ!

كان واضحاً من ردة فعل موظف السفارة أنه قد انقضى وقت طويل على المرة الأخيرة التي طلب فيها أجنبي تأشيرة السفر إلى كوريا الشمالية .. ويمكن وضع عشرة خطوط حمراء بارزة تحت كلمة (طويل) .. فقد كان من الواضح أنه

لا أحد يسافر .. ولا أحد مسموح له الذهاب إلى بلد مُسَيَّج تماما بالسرية ، ولا يتعامل مع الأجنبي إلا على أنه عميل أو جاسوس أو على الأقل هو شخص غير مرغوب به ، لا يعرف ما الذي ينتظره هناك ، فهو جاهل لا يدرك العواقب! استجمع الموظف لغته العربية الركيكة وسألني : ماذا تعمل؟! - صحفي في الشأن الرياضي ، وهذا كتاب تأييد من الجهة التي أعمل فيها ! هنا اتسعت عينا الموظف الضيقتان ، وظهرت خطوط الدهشة على جبهته ، فتناول ورقة التأييد بأنني صحفي بيدين مرتجفتين ، وتركني بسرعة ، وذهب إلى عمق بناية السفارة راكضا وقد اجتاز الحديقة الصغيرة وبيده كتاب التأييد!

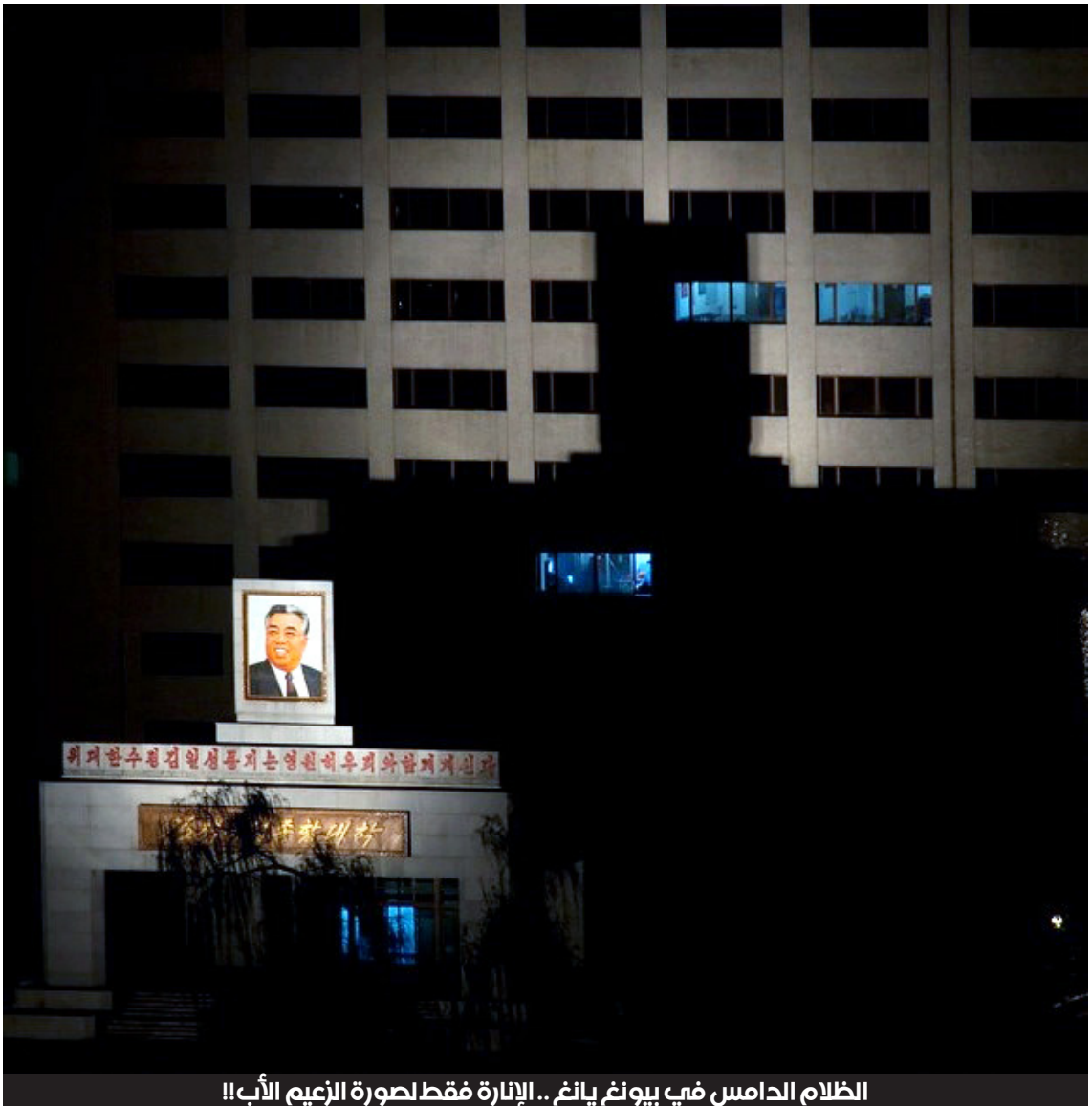
لم أملك سوى أن اتحلى بالصبر ، وأن أجد لي كرسيًا أجلس عليه انتظارا لما ستؤول إليه الأمور .. وظهرت في البال تساؤلات شتى نابغة من عمق ما أعرفه عن هذا البلد : هل سيسمحون لي بالذهاب إلى هناك ؟ كان هذا سؤالاً الأخير الحائر المحير!

بعد ربع ساعة عاد الموظف ومعه شخصان آخران ، كان واضحا أنهما مسؤولان ربيعان في السفارة ، فقد كان موظف الاستقبال ينحني مرارا وهو يفسح الطريق لهما باتجاه غرفة الاستقبال!

قال لي المسؤول الرفيع : تقول إنك صحفي رياضي؟! - نعم .. في إمكانك أن تجد هذا في نص الدعوة الموجهة إليّ من قبل اللجنة الأولمبية الكورية الشمالية ، وكذلك رسالة التأييد الرسمية من مؤسستي الإعلامية!



- أهااااا .. إذن أنت تريد أن تزور بيونغ يانغ ..
- نعم إن كان لديكم ما لا يمنع!
- دعني أشرح لك الأمر يا سيد علي .. هل هنالك سبب للزيارة؟
- أنا صحفي ولديّ دعوة لحضور بطولة رياضية في بلادكم .. ثم قلت مجاملا - : ويسعدني أن أكون هناك لكي
أنقل صورة إيجابية عنكم خلافا للصورة التي ينقلها الغرب بقواه الإمبريالية الرجعية الاحتكارية في إطار التضليل
والافتراء عليكم!
- أهااااا .. إذن أنت صحفي وتريد أن تسافر لكي تحضر بطولة؟





ففي الشارع العام .. نظرة ربية إلى الزائر الأجنبي

كان عليّ أن اتحلى بالقدرة على الصبر وأنا اتلقى السؤال بصيغ متكررة مختلفة .. وبعد حوار طويل ، امتدت يد المسؤول إلى أحد أدراج المكتب ليستلّ حزمة أوراق ويضعها على سطح المكتب .. - تفضل هذه مجموعة تعليمات يجب أن تقرأها بشكل جيد قبل الموافقة عليها .. حاولت أن أقلب في الأوراق التي وُضعت على المكتب ووجدت رزمة مكونة من (7) أوراق كلها شروط وتعليمات وتحذيرات ، والمطلوب أن أوافق عليها جميعا ، وإلا فإن ترك أو رفض فقرة واحدة منها سينسف جهودي من الأصل لأنه يعني أنني قد تخليت عن فكرة الحصول على التأشيرة!

طلبت من المسؤول الرفيع أن أضع الأوراق في حقيبتي لمراجعتها بشكل متأن في الفندق ومن ثم العودة في اليوم الثاني بعد إكمال القراءة والموافقة عليها ، لكنه رفض مقترحي رفضا قاطعا : يجب أن يتم الأمر هنا .. لديك كل الوقت .. فقط يجب عدم تصوير أية ورقة ، وموظف الاستقبال سيجلس بجانبك للمساعدة .. ولا تخشى الوقت ، فسننتظرك اليوم كله!

* * *

- جلست موافقا - ولا خيار آخر امامي - وانهمكت في مطالعة لوائح الشروط والتحذيرات والممنوعات
- 1- خلال الزيارة لا يجوز الحديث إلى أي شخص كوري أو أجنبي آخر باستثناء من هو مخول من قبلنا ، وسنعلمك بذلك حين الوصول.
 - 2- قبل أن تصعد إلى الطائرة التي ستقلك في وجهتك النهائية إلى بيونغ يانغ - وهي الخطوط الرسمية الكورية

- الشمالية - عليك أن تقدم جردا بالأغراض التي معك ، ولاحقا وعند مغادرة كوريا لدى انتهاء الزيارة سيجري جرد آخر لأغراضك ، ويستحسن ألا يكون هناك اختلاف بينها لدى الوصول ولدى المغادرة!
- 3- لا ضرورة أبدا لأن يكون معك حاسوب أو كاميرا ، فلن يكون مسموحا هناك أن تستخدمها.
- 4- خلال الإقامة في بيونغ يانغ ، لستَ مخيرا في الخروج من الفندق وقتما تشاء .. إنما يجب عليك إخبار المسؤولين الأمنيين في الفندق عن وقت خروجك ، ويفضل تماما عدم الخروج في الليل وتحديدًا بعد الساعة مساء.
- 5- لا يُسمح لك التنقل حيث تريد على النحو الذي تشاء .. كل شيء سيكون موضوعا في برنامج ، ويجب الإفصاح عن أي مكان تريد الذهاب إليه لاستحصال الموافقات.



دورة الألعاب الأولمبية الشتوية .. حدث نادر اشترك فيه شطرا كوريا

- 6- أية بضاعة باستثناء حاجياتك ولوازمك الشخصية ، غير مصرح بها تماما.
- 7- أنت صحفي رياضي ونرجو أن تكون حدود عملك في حدود هذا النطاق ، وألا تكون لديك مشاريع أخرى خلال الإقامة في بيونغ يانغ!
- كانت القائمة واسعة وطويلة ولم تدّخر أمرا ممنوعا إلا وذكرته . لا يمكن أن اتحدث هنا عن تضيق الحريات بالنسبة لي ، فهذا ترف يجب أن اتخلى عنه وألا أفكر فيه وأنا أنوي السفر إلى كوريا الشمالية . وقد تأكد لدي تماما وأنا أطلع الشروط والممنوعات والتحذيرات ، أن فرصة سفر الأجنبي إلى كوريا الشمالية لا تزيد عن واحد بالمليون في أفضل الظروف والاحتمالات.. هذا إذا أخذنا بنظر الاعتبار أنني صحفي أعمل في الرياضة ولديّ دعوة رسمية من اللجنة الأولمبية هناك ، فما بالك بمن تداعب عقله فكرة السفر على اعتبار أن كوريا بلد مثل أي بلدان الدنيا فيه

تنقل منه وإليه ، وفيه سفر متاح أو مباح للسياح ورجال الأعمال وغيرهم!

* * *

كانت (قضيتي) المركزية أن أسافر تحت أي ظرف ومقابل أية شروط ، وفي ظل أية مخاطر تنتظري .. فطلبت قلما من موظف الاستعلامات ووضعت توقيعي ومعه ضحكة محسوبة بدقة كي لا تفلت هذه الفرصة من يدي ، وقلت للمسؤول الرفيع : موافق .. وعندي القناعة بأنكم يجب أن تتعاملوا مع أي موفد حتى لو كان رسميا على هذا النحو ، فأنتم بلد كبير مناضل ومستهدف تحيط بكم المؤامرة من كل صوب .. حتى من جيرانكم الجنوبيين (الجملة الأخيرة ليست سوى دعاية أردت بها تحريك الحس الوطني الثوري ، لأنني شخصا على قناعة بالعكس)!!



عند نهر يالو .. كل شيء هادئ .. يوحى بإيقاع بطيء للحياة

بعد سفر طويل استغرق تسع عشرة ساعة من أبو ظبي إلى العاصمة الصينية بكين كمحطة ترانزيت ثم الانتقال إلى بيونغ يانغ ، وصلت إلى العاصمة الكورية الشمالية ، لتبدأ رحلة الاكتشافات المذهلة بحواس يجب أن تكون واعية ومُستفجرة .. فالطائر خال من حركة المسافرين المعهودة .. كان واضحا أن المسافرين ليسوا سوى رجال السياسة أو القيادة في هذا البلد ببدلاتهم (السفاري) الرسمية التي غالبا ما تكتسي باللون الرمادي، وأن وجهتهم الرئيسة هي الصين!

فالمواطن الكوري ممنوع من السفر تحت أي ظرف من الظروف .. لا سياحة .. لا دراسة .. لا مؤتمرات .. حتى أعضاء الوفود الرياضية التي نلتقي بها في مناسبات آسيوية مختلفة ، هم موفدون من الطراز الأول في السياق الكوري .. كلمة (سياق) تعني الانضباط الشديد وألا كانت العقوبة القاسية في الانتظار لدى العودة إلى كوريا ..



ساحة كيم إيل سونغ .. للفرح والاستعراض فقط لمحبة الزعيم

ربما يسفر عن هذا اعتذار هذا المنتخب الكوري أو ذاك عن عدم المشاركة في بعض البطولات المهمة قبيل انطلاقها بوقت قصير ، فالسبب هو تأخر الموافقات الحكومية على السفر ، ولا يمكن لأي مسؤول رياضي مهما كان رفيعا أن يتدخل في أمر تسهيل أو استعجال الموافقة!

المرافق الكوري الذي كان في انتظاري ، أبدى ودا وأدبا شديدين وهو يستقبلني ، لكن الأمر لم يتم على هذا النحو دوما .. فبعد دقائق ، كنت معه في غرفة خاصة لمراجعة كل لوازمي وحاجياتي وحسابها بشكل دقيق .. لا حاسوب شخصي .. لا كاميرا .. لا أدوات اليكترونية أو كهربائية أخرى!

الاستثناء الوحيد هو هاتفي المحمول ، وقد أخذ المرافق يقلّب فيه ، ويُمعن النظر في علامته التجارية .. كان الأمر لافتا ، ذلك أن كل شيء هنا هو صناعة كورية ، فلا استيراد أبدا!

بعد أن جمعت أغراضي مجددا في حقبتي ، مال المرافق إلى أذني وقال : مؤكد أنك تعرف أنه لا توجد خطوط للاتصال الدولي .. أما استخدام كاميرا المحمول ، فيجب أن تتقيد به ولا تتورط في تصوير ما لا لزوم له!

تلقيت وعيد المرافق المُغلف بالأدب ، بابتسامة مصطنعة لا بديل لي عنها وأجبت : نعم أعرف هذا .. ولكن كيف سيتسنى لي نقل أخبار البطولة إلى الجهة الإعلامية التي أعمل فيها؟

لاحظت ضحكة واثقة من المرافق الكوري ومعها التأكيد على أن كل شيء سيجري على ما يرام! لم أفهم عبارة (على ما يرام) هذه إلا عندما بدأت فعاليات البطولة ، وارتفع منسوب قلقي ورحلت اتساءل عن مصير رسالتي الصحفية . وبعد تأخير طويل وسلسلة من المراجعات بين المسؤولين الرياضيين الكوريين ، وبعد محاولات مقابلة للتملص مني جاء الحل ، وهو أن أجيء يوميا إلى طاولة الاستقبال في الفندق ، وأجلس إلى أحد الحواسيب الخاصة بالفندق وأكتب رسالتي باللغة الإنكليزية بينما يكون المرافق جالسا إلى جوارى بقصد المساعدة .. أي بقصد الاطلاع على كل حرف أكتبه في رسالتي الصحفية الرياضية .. فالبلد مستهدف ويجب أن يكون كل شيء يخرج من هنا مَقننا ومفلترا ومقبولا لدى الكوريين!

* * *

خلال الأيام السبعة التي أمضيتها في العاصمة بيونغ يانغ ، كانت لي عين على مجريات الحدث الرياضي في الملاعب ، وكانت عيون كثيرة ترصدني بل تترصدني ، ولكن فضولي كان يدفعني إلى ما هو أبعد بكثير من فضاء الملعب! كنت أريد أن أخرج إلى الشارع .. وأن أتمشى .. وأن أشاهد .. وأن أعرف .. ما جدوى الخوض في أهوال ومخاطر المجيء إلى هذا البلد المغلق بكل الأقفال المتاحة ، من دون أن أضع نفسي وسط المشهد الحياتي الذي رأيت عنه القليل في برامج قصيرة ، وسمعت عنه أكثر؟! هل ما يكتب عن الحياة في كوريا الشمالية نسج من الخيال الغربي الذي يريد للتجربة الكورية في الشطر الشمالي



الأطعمة الكورية التقليدية تنتظر من يشتري

أن تتضاءل وتضمحل وتنتهي عند أسوار العتمة والاستهداف ونقل الصور المزيفة إلى ذهنية مُعدّة في أغلب الأحيان لتجريم هذه التجربة الطويلة التي يقول الكوريون إنها اشتراكية شعبية تحقق الاكتفاء الذاتي والخوض في دروب الحياة من دون اللقاء مع الأعداء من خارج الحدود .. وما أكثرهم؟!

كان مما استرعى انتباهي ، أنه غير مسموح لي مطلقا الذهاب إلى أي مكان من دون مرافق ، غالبا ما يكون مسؤولا أمنيا من الثقة لدى بلاده ، والذين لا يمكن اختراقهم في بلد تهيمن عليه الرشوة بشكل مفزع برغم قسوة العقوبات التي لا تقل في كل مرة عن الموت!

فكرت في أن أخرج إلى ناصية الفندق للعثور على سيارة أجرة تنقلني إلى ساحة كيم إيل سونغ الشهيرة .. فلحق بي أحد الموظفين الأمنيين وأكد لي أنه لا وجود لسيارات الأجرة في كوريا .. هنالك وسائل النقل العام ، ثم إنني يجب أن استحصل على موافقة الخروج من المسؤولين وعندها سيكتفل أحدهم بنقلي إذا تمت الموافقة على فكرة الزيارة! الشوارع في بيونغ يانغ عريضة على نحو ممل .. أنا أعني هذه العبارة تماما .. لأنها شوارع لا ضرورة ولا لزوم لها .. فباستثناء الحافلات الرسمية الشعبية التي تقوم بنقل الجميع وعددها ليس كبيرا على مدار اليوم ، هنالك الدرجات الهوائية وهي الحل والوسيلة والواسطة ، وقد لاحظت أن سيارات الصالون الصغيرة محدودة جدا وتكاد



حتّى في الفنّون .. هنالك جذب وجفاف



شوارع بيونغ يانغ ممتلئة بعد أن خلت من السيارات في منتصف النهار

تكون متشابهة من طراز واحد .. ربما أشاهد كل ثلاث أو أربع دقائق واحدة منها ، وهذا له مدلولان .. الأول أن هذا النوع من السيارات متاح فقط للصف الأول أو الثاني من المسؤولين والحزبيين في البلد ، أما المدلول الثاني فهو أن كوريا الشمالية لا تعرف أي شكل من أشكال الزحام المروري .. هل أقول رب ضارة نافعة؟ لاحظت في الشارع كما في ساحة مؤسس كوريا الشمالية كيم إيل سونغ أن المواطن العادي يتحاشي تماما ، ويتحاشي أي أجنبي .. لا سؤال .. لا جواب .. غير مسموح بأي نوع من التهاون.. الشعب الكوري صار يتقن التعامل مع الفكرة الأمنية التي يسير وفقها تماما ، فهو يعرف أنني أجنبي وأن معي مرافقا أمنيا ينظر شزرا للجميع .. ولهذا كان عليّ أنا أن أشعر بالوحدة وسط الملايين من الناس!!

* * *

بعد ثلاثة أيام من حرصي على نيل ثقة المرافق الكوري الذي كان يصحبني مثل ظلي ، صار في وسعي أن اتحلى بقدر ولو ضئيل من الشجاعة لكي أطرح تساؤلاتي الحائرة ، ولكي يتولى هو الإجابة عن بعضها وإهمال معظمها ، وكان هذا كرما بالغا منه قد يتسبب في دفع حياته ثمنا لذلك لو علم المسؤولون عنه! فهمت مما كان يدور حولي ، أن السكن في العاصمة ليس متاحا لمن يرغب أو حتى لأبنائها بالولادة .. ففي كوريا الشمالية التي يبلغ عدد سكانها ستة وعشرين مليون نسمة ، لا يجوز لأي شخص غير مؤهل صحيا أن يعيش في العاصمة!

يخضع الشخص هنا لفحوصات طبية دورية ، وحين يتم اكتشاف علة لديه ، يصبح ملزما بالرحيل هو وعائلته عن

العاصمة ، والسلطات المحلية تخيّره بين ثلاث مدن أخرى للانتقال إليها ، إذ لا يجوز أن يعيش في بيونغ يانغ غير الأصحاء جسدياً تماماً!

وفهمت أن الدولة تهيمن هيمنة مطلقة على كل شيء .. كل مرفق .. كل نشاط .. حتى دور السينما تشيخ بوجهها تماماً عن الانتاج العالمي في هوليوود وبوليوود وكل معقل آخر لصناعة السينما ، وهي لا تعرض إلا الانتاج الكوري الشمالي من الأفلام ، وهي أفلام لا تتحدث إلا عن بطولة ومجد الرئيس وقتها كيم جونج إل .. لاحظت في أحد الأفلام مستوى التقديس الذي بلغه الزعيم عند شعبه .. تقديس بالإكراه ، حتى أن أحد الحوارات في أحد الافلام يتحدث عن الزعيم الذي بلغ مرتبة الأنبياء ، بيده تصارييف الحياة .. والموت طبعاً!

في مقابل هذا ، لا يصح أبداً أن يرد اسم الرئيس في أي حوار دونما توقيير بمفردات خاصة محفوظة على ظهر قلب .. المنع شامل في المشهد الحياتي ، ويستثنى من ذلك الزائر الأجنبي الذي يجب أن يتحدث عن إنجازات الرئيس وعن بطولاته وعن قدرته على الصمود في وجه كل المؤامرات التي تحاك في الخارج!

* * *

عشت التجربة الكورية في الشطر الشمالي .. الصحيح أنني عشت ما تمكنت من التقاطه بالذكاء والمخاتلة .. وحين غادرت بيونغ يانغ ، تأكد لي كثير مما قرأت أو سمعت أو شاهدت .. هذا بلد مغلق تماماً ، لا يعلم المواطن فيه ما يجري في الدنيا من حوله!

بالأحرى ، لقد جرى تغييب عقل المواطن وفكره وذهنه وثقافته عن كل ما يتصل بها وراء الحدود بصلة .. فقط لكي تبقى هذه الفكرة السياسية الثقيلة ، ولكي تستمر التجربة ، ولكي يثبت أهل الحل والربط في كوريا أنهم على حق ، وأن الدنيا كلها تضم لهم الشر ، ولا تريد لهم عيشاً (كريماً) أكثر مما هم غارقون فيه !

الأرجنتين



الأرجنتين الطرف الفضي للكرة الارضية .. معالم الجمال في كل مكان

الأصباغ الزاهية .. سلاح المسحوقين للهروب من فقرهم !!

في الأرجنتين .. الطرف الأقرب من الأرض إلى القطب الجنوبي المنجمد ، تفضي كل المسميات والعناوين والدلائل والأشياء والصور والأخيلة نحو معنى واحد هو : ليونيل ميسي!

سائق سيارة الأجرة الطاعن في السن والذي يفخر بحيويته ونشاطه وهو يقترب من الخامسة والسبعين من العمر ويرتدي قميصا بلون وردي زاه ، يقول إنه كلما شاهد ميسي وهو يتهادى وراء الكرة أو معها ، ازداد شبابا ، بل رجع إليه صباه ، فعند قدم هذه اللاعب تبدأ فنون كرة القدم .. وتنتهي أيضا!

ليس هذا سوى انطباع واحد رصدته في مدينة بوينس آيرس التي تعني باللغة الإسبانية الرسمية للبلد (النسيم العليل) .. وقد لاحظت خلال وجود ثمانية آلاف متفرج على مدرجات صالة تيكنوبوليس لمشاهدة لقاء الأرجنتين مع مصر في كرة الصالات الأولمبية أن نصف الجمهور على الأقل يرتدي القميص ذا اللونين الأبيض والسماوي بالرقم (10) ، وبالطبع فإن نسبة النساء هنا تتفوق على الرجال ، ثم كان الهوس بهذا اللاعب من خلال الأغنيات الصاخبة التي هزت أرجاء القاعة ، وحالت بيننا وبين سماع أحاديثنا الجانبية خلال المباراة .. فالأناشيد تتغنى بحب بلاد التانغو ، وفي معظم كلماتها باللغة الإسبانية يمر ميسي كالطيف الجميل ، لكنه - ولا شك - ليس طيفا عابرا!



نجوم الكرة .. أبطال قوميون يبلغون القداسة لدى الشعب الأرجنتيني!

تخرج من صالة الكرة ، إلى الشوارع العامة ، فتجد هذا الاكتساح الذي يحققه ميسي هنا في بوينس آيرس على صعيد مبيعات قميصه سواء بهويته الأرجنتينية أو بطابعه الكتالوني لاعبا في برشلونة! تقول صاحبة متجر في قلب العاصمة بوينس آيرس : لا تعجب أبداً إذا وجدت أن عشرات الآلاف من قمصان وتذكارات وصور ميسي تباع هنا يوميا ، وأنا لا أحدث هنا عن جنون السائحين القادمين من وراء الحدود ، بل اتحدث عن ابن البلد الذي يظل يشتري ويشترى القميص الأرجنتيني بالرقم عشرة من دون توقف ، فيتراكم لديه ما يشتري ، ثم لا يكلّ ويطلب المزيد ، فقط لأنه يرى في ميسي مصدرا للفخر الوطني الذي لا ينتهي!

حاولت أن (أداهر) العجوز صاحبة المتجر وهي تغلف لي قميصا لميسي كان طلبا من أحد الزملاء هناك عند الديار في بغداد . قلت لها : ولكن ميسي لم يحقق لكم كأس العالم على غرار ما فعله ماريو كيمبس أو دانييل باساريللا ، أو أوزفالدو أريدليس وغيرهم من الكتيبة المدهشة التي حققت إنجاز عام 1978.. أو حتى النجم المذهل الأسطوري مارادونا وجيله الذهبي في موندiales 1986!

كان الرد جاهزا وفوريا وربما فيه شيء من الاعتداد والتحدي : ولكن ميسي هو الذي قدم الهوية الأرجنتينية الحقيقية إلى العالم حين لعب لبرشلونة . لا تنس أنه يلعب في إسبانيا منذ ما يزيد عن ثلاث عشرة سنة ، وهو يصنع التاريخ هناك ، ولهذا فلا نعدّ الأمر نقيصة أو عيبا أن يخلو سجل (أرجنتين ميسي) من كأس العالم ، لأن ميسي (بطل العالم) المتوّج بحبنا ، وهذه مشاعر مئات الملايين على وجه الأرض!

في كل يوم .. يكتب نجم برشلونة الذهبي تاريخا لنفسه ، ولجمهوره ، ولبلاده .. وهنا في (الطرف الفضي) وهذا معنى كلمة (أرجنتين) في اللغة اللاتينية القديمة ، اكتشف مرة أخرى أن الصنيع الطيب لا يضيع ، وأن أبهى وأروع ما يمكن أن تجده في هذه البلاد القصية أنها تختلف على كل شيء ، وفي كل شيء ، إلا تجديد الولاء لميسي ، ومضاعفة شعور

الحب له!

* * *

لم أشاهد سوى نصف الساعة الأخير من مباراة أسود الرفادين مع منتخب الأرجنتين والتي اجريت في السعودية خلال رحلتي إلى بلاد التانغو .. لكن هذه الدقائق الثلاثين هي الأكثر خصوصية واستثنائية وربما متعة في حياتي .. فأنا تحت زخات المطر كنت أجري بسرعة من أحد الملاعب في ضواحي الأرجنتين نحو الطريق الرئيس للحصول على سيارة أجرة تقلني إلى الفندق .. وهنا كانت المتعة ، فقد كان سائق الأجرة مستغرقا في مشاهدة مباراة العراق مع الأرجنتين وقد وضع وهو يقود السيارة موبايله الشخصي في أعلى ومقدمة (الدشبول) وكان واضحا أنه ينفعل ويهدأ تبعا لأطوار المباراة .. يسب ويشتم .. ثم يفرح ويهلل ويستبشر ، وأنا لم أكن أفهم شيئا مما كان يقول إلا عبر قراءة وجهه!

وحين علم أنني عراقي أصّر على التجوال بي في ضواحي المدينة في مناخ شتائي غاية في الروعة حتى أكملنا المباراة ومعها الاستوديو التحليلي للتلفزيون الأرجنتيني!

سألت السائق : ماذا يقول المعلق أو المحللون عن الفريق العراقي؟

أطلق ابتسامة مجاملة لي شابها بعض من الخجل ، وأباح لي بالسر الكبير .. قال: المحللون يكرّرون أن من الواضح أن المنتخب أو الأصح مدرب المنتخب العراقي يعشق اللعب الدفاعي في مناسبات كهذه!

أطلقت أنا الآخر ابتسامة مجاملة مقابلة للسائق الأرجنتيني المتيم بالكرة ، وشكرته على حفاوته (الكروية) ، والآن يتوجب علي مشاهدة المباراة كاملة للتأكد مما يقوله الأرجنتينيون عنا!!!

* * *

كنت في غاية الحماسة واللهفة وكذلك الفضول ، وأنا أضع نفسي داخل سيارة الأجرة لأقول للسائق : خذني ، أرجوك إلى



في سيارة الأجرة تابعت لقاء العراق مع الأرجنتين والذي جرى في السعودية!!

نادي ريفر بليت!

لم انتبه إلى سحنة السائق أو ملامحه قبل أن أحدد له وجهتي في إحدى ضواحي مدينة بوينس آيرس ، لكن الموقف تطوّر بسرعة شديدة حين التفت إليّ السائق ليذكرني وجهه بالمطرب اللبناني الراحل نصري شمس الدين وشاربه المفتول المبروم صعودا نحو الخدين المتوردين اللذين لم ينطفئ فيهما حراك الدم برغم كبر السن!
قال لي بصرامة شديدة ليس فيها أدنى مجاملة لغريب أجنبي مثلي : هل تتحدث الإسبانية؟!
قلت له بلغة إنكليزية يسيرة مبسّطة حتى يفهم مرامي أو ردّي : لا .. ولكن لماذا .. العنوان عندك هنا مكتوب على الورقة؟

كان ردّه بعد ذلك عاصفا ، إذ قال : لا تعرف اللغة الإسبانية ، وأيضا لا تفهم في كرة القدم .. أووووه يا إلهي !!
كان رفيقي في الرحلة القصيرة إلى ديار ريفر بليت الصديق هيثم عبد الحميد إداري البعثة العراقية المشاركة في دورة



عند واجهة نادي ريفر بليت .. زيارة كان ثمنها باهظا!!!

الألعاب الأولمبية للشباب ، وانتهت إلى أنه كان مستغرقا في نوبة من الضحك المتواصل وهو يرى طريقة التهاور بيني وبين السائق ، ولكنه كان يريد أن يعرف كيف وإلى أين ستنتهي حكايتي مع السائق العجوز الذي قام رفيقنا الأرجنتيني بترجمة ما قاله بعد ذلك ، فقد اكتشفت أن السائق مشجع معتق متعصب للنادي الغريم وهو بوكا جونيورز .. وبين الناديين ما صنع الحداد ، وما ترك التاريخ من جروح غائرة وأخاديد عميقة لا سبيل إلى ردمها!
كان السائق العجوز يقطع المسافة الطويلة وهو يشوّح بيديه ذات اليمين وذات الشمال ، ثم يصفع وجهه ويضرب جبهته ويقول : لقد وصل الجهل بكرة القدم الأرجنتينية إلى الأجانب القادمين إلى أرضنا .. متى يفهمون أن البوكا هو النادي الأبرز والأفضل والأكثر جماهيرية ، متى يتخلون عن نادي الشؤم هذا .. يقصد ريفر بليت!!
بالطبع ، لست أنا من مشجعي أي نادٍ أرجنتيني ، لكنني ومع الإحساس الأول بأن الرجل العجوز يكره النادي الغريم

له ، قرّرت المضي في (اللعبة) والادعاء بأنني من مناصري الريفر من أيام باساريللا وكيمبس وأورتيجا وكريسو وكثيرين غيرهم....
أوشكنا على الوصول إلى مقر النادي الشاهق المنتصب على مساحة متزامية الأطراف .. وقبل أن نترجّل من السيارة ، أذى السائق العجوز فاصلا صاحبها هو الأكثر متعة وإثارة ، فقد حرص على أن يوقف سيارته عند بوابة النادي وأن يرفع عقيرته بالصياح ، وكانت عباراته كالتالي:
- سحقا لكم أيها النادي الكريه .. والله لو بقي يوم واحد من عمري ، لن أشعر إزاءكم إلا بالكراهية .. اذهبوا إلى



حي لا بوكا.. ألوان صارخة في محاولة لنفي الفقر!!

الجحيم .. المجد لبوكا جونيورز نادي الفقراء .. اللعنة على ريفر بليت نادي الكروش المنسدلة على الأحزمة وعلى كل من يحبه أو يتعاطف معه .. من الأرجنتينيين ومن الأجانب!

أسرعت إلى دفع الأجرة والانسحاب من المشهد تماما .. فقد خرج حراس النادي وبعض إدارييه ليسمعوا ما يחדش السمع والحياء .. أما أنا وصديقي هيثم والمترجم الأرجنتيني ، فقد أطلقنا لهم ضحكة خافتة باهتة تعبيراً عن براءتنا مما اقترفه لسان ويد وشوارب مشجع البوكا ، وباشرنا في التقاط الصور عند المدخل ، من دون إكمال رحلتنا داخل النادي خشية أن تصيبنا شظايا حروب البوكا والريفر!

* * *

كنت حريصاً على التماس أية فرصة سانحة ، للذهاب إلى حي (البوكا) الذي يسكنه فقراء بوينس آيرس وفيه يشمخ ملعب (لا بومبونيرا) التابع لنادي بوكا جونيورز منذ ثمان وسبعين سنة .. سألت آلن ميتري وهو صحفي أرجنتيني من أصول لبنانية ، إذ ينتمي جده إلى عائلة معلوف الشهيرة التي كانت من أوائل العوائل العربية التي هاجرت إلى أمريكا الجنوبية .. سألته عن السبيل المناسب للذهاب إلى هناك ..

وكان ردّه : الأمر يسير ، ولكن يمكنك إذا شئت أن تجعله أكثر خطورة على حياتك!

لم أفهم المغزى الذي أرادته ميتري ، فقلت مستوضحا : إنها لمفارقة حقا أن يكون يسيرا أو يكون مجازفة!

قال : إذا ذهبت بعد الساعة مساء بسيارة الأجرة ، فعليك أن تحذر .. هذه واحدة من أخطر المناطق في الأرجنتين ، عامرة بكل صنف من الجريمة والمجرمين ، ولا اعتقد أنك ستلقى معاملة استثنائية ودية إذا علموا أنك أجنبي .. فما لك غير الذهاب في رائحة النهار بالقطار القديم . اقطع تذكرة من وسط العاصمة واذهب ، وستكتشف أن محطة الوقوف ستكون على بعد أمتار فقط من المدخل الرئيس للنادي .. هذه نصيحتي ، فلا تقلّب الأمر في ذهنك ، بل اتخذ القطار



حطب شوارع حي لا بوكا تردهي بألوان الفرح



أمام ملعب لايوميونيرا الشهير.. سكة القطار على بعد ثلاثة أمتار!!

وسيلة!

صعدت على متن القطار الذي كان يتهادى ببطء شديد وقد أصابه كثير الوهن .. واضح أن تاريخ صناعته يعود إلى ستين أو سبعين سنة مضت .. وفي المحطة الثانية كنا عند باب النادي ، وأنا أعني هذه العبارة تماما ، فسكة الحديد لا تبعد عن الملعب سوى ثلاثة أمتار ، وحين يمر القطار تتمايل المدرجات بفعل دوي عرباته ، لا بفعل هدف تهتز له الشباك والمشاعر!

قبل التوقف ، كان الهرج والمرج يسودان القطار ، الكل من مشجعي البوكا يردد بشراسة (توقف يا ... توقف حالا .. سننزل هنا) ، وعند المدخل هنالك متجر يبيع التجهيزات الرياضية ، وفي بوابته تمثالان ظريفان للنجمين مارادونا وباليرمو وهما من أبرز مشاهير البوكا .. قلت لنفسني لأدخل وأشتري قميصا أوصاني به أحد أصدقاء الفيسبوك .. وحين سألت عن قميص المنتخب الأرجنتيني بالرقم (10) قال لي البائع : أهأااااا .. مارادونا؟!

قلت : لا .. ليونيل ميسي!

ردّ البائع كأنه يصوب لسانه نحوي: لا نبيع قمصان ميسي .. إذا شئت فاذهب إلى روزاريو!

وروزاريو هي المدينة التي ولد فيها ميسي وقيل وقتها إنه يصلح لأي شيء إلا لكرة القدم ، فأثبت خطأ الجميع!



عند واجهة الملعب تتألف تماثيل للنجوم من طراز ميسي و تيفيز

خرجت من المتجر ذاهلا من فرط هذا النمط من التعصب ، وذهبت إلى مدخل نادي بوكا جونيورز قبل أن يسدل المساء ستاره وتبدأ سلسلة المخاطر ، وكان هديي تماما أن أسأل عن (غرفة مارادونا) .. وبعد التي واللتيا ، فتحوا لي هذه الغرفة ولم أجد فيها غير مجموعة من الكراسي وطاولة ومزهرية تنوء بحمل ورود حَلَّ بها الذبول منذ زمن بعيد .. يقال إن مارادونا لم يدخل هذه الغرفة منذ سنوات!

أما لماذا هذه الغرفة بالذات ، فذلك لأن نادي بوكا جونيورز وفي التفاتة تاريخية لتكريم نجمه الفذ عبر التاريخ ، قد خصّص غرفة يتابع منها مارادونا المباريات التي تقام في هذا الملعب وفي الوقت الذي يختاره هو ، وهي مسجلة باسمه حتى بعد رحيله ، لا يجلس فيها زائر مهم أو ضيف رفيع!

ومن قراءاتي ، أن الرئيس الأرجنتيني الأسبق كارلوس منعم طلب ذات يوم أن يتابع إحدى المباريات من داخل الغرفة لاكتشاف المعاني والأجواء التي تكمن فيها .. كان الرئيس يتساءل عن أي سر يكمن فيها ليجعلها مختلفة عن كل غرف وصالات وقاعات الملعب الأخرى .. مجرد حب استطلاع أو اقتفاء أثر من قبل الرجل الأول في الدولة!

كان الرد من إدارة النادي سريعا وعاصفا وهو عدم السماح للرئيس .. وكان الرد الرسمي الذي اعلنته الإدارة بالنص وعمّمته على الصحف : الرئيس يأتي ويرحل ، أما مارادونا ، فباق أميرا للقلوب ومالكا لهذا المكان!

إدفع مائة بيزو (دولارين ونصف) والتقط ثلاث صور مع مارادونا!

قرأت هذه اللوحة عند مدخل أحد الملاعب في الأرجنتين ، وقلت لنفسي مندهشا ذاهلا أعاتبها واستفهمها وألوم الزمن الخؤون : هل بلغ الهوان بأسطورة الكرة العالمية أن يتهالك إلى هذا المستوى من الفقر المدقع؟! .. أين ذهبت الأموال الطائلة التي جناها من نجوميته في كرة القدم لعبا وتدريباً وتسويقاً .. أيقبل بمبلغ بخس نظير التقاط صورة مع من يسوى ومن لا يسوى من بني البشر وربما شذاذ الآفاق؟! *

بعد لحظات كنت أمام الحقيقة كلها : فهذا الشبيه الذي ينتمي إلى مارادونا في الشكل وخفة الظل ، يستثمر هذه الصلة (الخلقية) بنجم النجوم ويستدرج الجماهير والرياضيين والزوار الأجانب ، ويغريهم بالتقاط الصور معه لقاء مبلغ زهيد ، فكثير منهم إن لم نقل كلهم لم تسنح لهم مثل هذه الفرصة الذهبية مع النسخة الأصلية من مارادونا .. وأحبتنا المصريون يقولون في أحد أمثالهم (إن فاتك الميري ، اتمرغ بترابه)!! *

في الأرجنتين طافت بي خيالاتي وعدت إلى العراق وسألت نفسي : ماذا يعرف أطفالنا أو صغارنا أو حتى جيل الشباب



الفن التشكيلي يتوهج على قارعة الطريق

عن جمولي وعمو بابا ودوكلكس عزيز وفلاح حسن وهادي أحمد ورعد حمودي وحسين سعيد وأحمد راضي ويونس محمود ونشأت أكرم ونور صبري وغيرهم من قمم الكرة العراقية؟

ماذا في وسع هذا الجيل أو الجيل الذي سبقه أن يفعل غير الذهاب إلى يوتيوب ليجد فئات ما يصله من صورة خاضعة لألف سؤال وربما مثلها من علامات الشك ، عبر مواقع التواصل الاجتماعي ومصداقية وحيادية ما يُطرح فيها؟

هل نحن في زمن يمكن أن يقرأ فيه الأطفال كتابا عن عبد كاظم أو علي كاظم ؟ هل تسمح زحمة الدنيا وصرعات الوسائل والألعاب والابتكارات الإلكترونية بأن يشتري الطفل أو الصبي كتابا يروي سيرة نجم من نجوم الكرة أو الرياضة على نحو عام؟

كنت أطرح هذه الأسئلة وأنا في الأرجنتين أتابع ما يحققه كتاب للصغار عن النجم ليونيل ميسي .. ولادته .. نشأته .. حياته .. نجاحاته في إسبانيا .. أبرز المعالم المهارية والتهديفية في رحلته ، وكيف انطلق من سفح اليأس إلى قمة النجاح. الكتاب بحجم متوسط .. طباعته أنيقة للغاية .. صفحاته لا تتجاوز الملزمتين أي الاثنتين والثلاثين صفحة . . يستند مؤلفه على الصور والإنفوGRAFIKس والديجيتال آرت أكثر من الكلام ، وذلك في مراعاة لأعمار الجيل الذي يفترض أنه يتعاطى هذا الكتاب!



التقيت مارادونا مقابل دولارين ونصف .. هكذا شاءت المقادير!



الأسطورة ميسي في كتاب أتيق للأطفال

ليس ميسي وحده موضوعا ومضمونا لكتاب في منتهى الأناقة ، مبهر في التفاصيل .. هنالك النجم البلجيكي هازارد، والفرنسي غريزمان ، والبرازيلي نيمار ، والكرواتي مودريتش.. وبالطبع - وهذه ليست مفاجأة - لم أجد كتابا عن كريستيانو رونالدو .. فمستوى التعصب الكروي هنا مذهل ، وغير مسبوق ، حتى على مستوى التأليف والنشر ، ولا يمكن أبدا أن أجد نظيرا له في أي مكان في العالم!



المكتبات صفة تقتنر بالعاصمة بوينس آيرس.. الشعب ما زال يقرأ

لاحظوا أن الكتب تتناول سير لاعبين ما زالوا على قيد الكرة والفن والإبداع ولم يعتزلوا بعد .. وهذه التفاتة ذكية ، بدلا من انتظار رحيل النجوم، ثم استعدادتهم من قبورهم أو من زوايا الاعتزال أو التقاعد الباردة ليبثوا فيهم سطورا وصورا لا تُصلح ما أفسده ضعف الذاكرة لدى الناس!

لديّ اليقين والثقة بأن التأليف في الكرة فكرة جميلة ومفيدة ، ولكنها لن تنجح أبداً عندنا .. فلا المؤلفون وخصوصاً أولئك الذين يكتبون للصغار ، يُقبلون على هذا النوع من الكتابة، ولا دور النشر تتبنى أفكارا كهذه في ظل جريها وراء اهتمامات واختصاصات أخرى ، ولا القارئ الصغير أو حتى الكبير لدينا سيسعى إلى اقتناء كتاب من هذا الطراز .. فالواضح أن العالم لا يزال على عهده في هذا الميدان ، أما نحن فقد تخلينا عن الريادة في التأليف والنشر والمطالعة .. قل لي متى قرأت كتابا رياضيا .. بل قل لي متى وضعت الفيسبوك في إجازة وذهبت إلى مكتبة بعينها لتبحث عن عنوان من العناوين!!

* * *

اليوم هو الجمعة .. وفي الساعات الأخيرة المتبقية من الرحلة إلى الأرجنتين ، هيمنت على الفكر والقلب كل زاوية في شارعنا العتيق .. المنتبي!

قلت لنفسي : لأبحث عن مكان أو شارع نظير في فكرته لشارعنا الزاهي الجميل ، فاكشفت عشق الشعب الأرجنتيني للقراءة والثقافة ، فقد دلني أحد الأصدقاء على شارع (مونتفيديو) العامر بكل صنف ولون من المكتبات والأكشاك التي تفتح أبوابها على مدار الأسبوع وليس في يوم محدد!

مونتفيديو هي عاصمة الأوروغواي ، والشوارع هنا تحمل أسماء دول أو عواصم من القارتين الأمريكيتين ، فهناك شارع الباراغواي ، وهافانا ، وكراكاس ، وتشيلي وساو باولو وغيرها!

في هذا الشارع رصدت ما لا يقل عن خمسين مكتبة أو كشكا لا تتعامل إلا بالكتب أو المجلات أو الصحف القديمة التي يجري عرضها على نحو فيه الذوق والصنعة .. واحترام الماضي!

معظم المعارض هنا باللغة الإسبانية ، وقليله بالبرتغالية والإنكليزية ، أما الصيد الثمين الذي خرجت به من الشارع ، فهو عدد خاص من مجلة (إل غرافيكو) الأسبوعية المتخصصة في كرة القدم .. عدد صدر عام 1990 بثلاثمائة وستين صفحة ، بجانب العدد الأسبوعي المعتاد ، وهو يربط بين مونديال 1986 والذي فازت به الأرجنتين ، والتحضير لمونديال 1990 في إيطاليا!

أبرز ما في العدد التاريخي هذا ، صفحات عديدة ومعلومات موسعة وصور نادرة عن مشاركة العراق في مونديال مكسيكو .. فلم اتردد لحظة واحدة في دفع ثمنه والحصول عليه وسيعينني أحد أصدقائي ممن يجيدون (الإسبانية) في ترجمة ما احتاج إليه ، فهو بحق وثيقة نادرة تستحق أن تضاف إلى إرث مشاركتنا الوحيدة في المونديال!



في كل ساحة تجد الإعلان عن مناسبات رياضية كبرى!



الفريق الذي دخل عرين الأسود عند سياح المواجهة!

هذه المرة .. خوض التحدي في عرين الأسود !!

كان لافتاً ذلك التهافت الشديد الذي كان عليه نجوم الكرة العالمية وهم يتقاطرون إلى إحدى ضواحي جوهانسبرغ عاصمة جنوب إفريقيا خلال مونديال 2010 .. ولم يكن صعباً اكتشاف السر ، فهذه المدينة التي تخلّصت منذ أمد ليس قصيراً من أسر التمييز العنصري مُحاطة بخمس محميات أو أدغال طبيعية واسعة الامتداد ، تشكل فاصلاً أوجدته الجغرافيا بينها وبين مداخل المدينة!

تسمية العاصمة جوهانسبرغ تعود أصولها إلى اسمي رجلين .. الأول جوهان ريسك، وهو موظف بدرجة رفيعة في مؤسسة المسح العام للأراضي في مقاطعة ترانسفال الواسعة.. والثاني كريستيان جوهانز جوبرت رئيس شركة التعدين وعضو البرلمان في المدينة.

كان الزملاء المصورون يأتون لنا في كل يوم بلقطات لنجوم الكرة العالمية وهم يقومون برحلات السفاري المنتظمة حين كان يسمح لهم جدول المباريات ، وقد وجدوا في حضورهم إلى هذا المكان أقصى جنوب القارة السمراء فرصة للاطلاع عن كثب على ما اعتادوا مشاهدته في القنوات العالمية الشهيرة التي تختص بعالم الحيوان أو الجغرافيا أو المغامرة ، حيث الطبيعة المفتوحة التي تتسع للمغامرة!

الصور الأكثر إثارة بالنسبة لي ولكثير من الزملاء الذين رافقوني في تغطية الموندريال ، جاءت عن المنتخب الألماني الذي حرص على أن يمضي يوما كاملا في أدغال (ماديكوي) التي تبعد عن جوهانسبرغ بمسافة ليست بعيدة على من يحمل

الرغبة الأكيدة في الذهاب ، إذ يمكن الوصول إليها بالسيارة في غضون ثلاث ساعات ونصف الساعة ، تزيد أو تنقص قليلا طبقا لحركة السير هناك! رأيت صورا للمدرب يواكيم لوف ومعه مانويل نوير وفيليب لام وتوماس مولر ومسعود أوزيل وسامي خضيرة وميروسلاف كلوزه وباستيان شفائينشتاينغر ، وهم يقتربون كثيرا من عرين الأسود ، لا بل أن بعضهم اندفع إلى مستوى الوقوف قبالة الأسود والتقاط الصور لها .. أو معها! كانت صورا مذهشة ، لكنها مفزعة في الوقت نفسه .. ماذا يمكن أن يحدث إذا خرج الأسد أو شبله عن وقاره أو طوره وشن هجمته على أحد منهم ؟ ماذا سيكون صدى هذا الخبر في أوساط بطولة كاس العالم ونجومه المشاهير الذين كانوا يحثون الخطي نحو الحصول على اللقب ؟ هل هو الاندفاع الذي يتسم بالشجاعة أو البطولة ، أم أنه التهور الذي يؤدي غالبا إلى دفع الثمن الباهظ؟!

كانت هذه أسئلتنا .. ومع تكرارها من قبلنا جميعا ، كانت انظارنا تتقابل وتتساءل في صمت ، إذ كانت (الفكرة) تتبلور في رؤوسنا يلخصها



ترقب لا يمكن وصفه داخل الحافلة بعد أن احاطت بها الأسود!

هذا السؤال : ماذا لو ذهبنا إلى المكان نفسه لنعيش تفاصيل المغامرة ذاتها ، كما وردت إلينا عبر الصور وما أوردته وكالات الأنباء العالمية؟!

تشجعنا كثيرا على أن نمضي في خطتنا بكل ما تحمله من مخاطر وسط طريق ضيق وسط الأدغال الكثيفة ، واتفقنا على

أن الموعد الوحيد الذي يمكننا فيه الذهاب إلى أدغال (ماديكوي) هو اليوم الذي يعقب ختام البطولة مباشرة حين نكون قد أنهينا المهمة الإعلامية التي جئنا من أجلها ، وهو كذلك اليوم الذي يسبق عودتنا من جوهانسبرغ .. لم يكن لدينا سوى يوم واحد لكي ننفذ ما كنا قد خططنا له ، ولهذا كانت يتوجب علينا التضحية بالتزامات التسوق .. مثلاً!

* * *

انطلقنا في ساعة مبكرة من الصباح ، من فندق انتركونتيننتال الذي كنا نقيم فيه .. كان يجب أن نتحلى بالهمة وأن نذهب مبكراً ، فنحن في حاجة إلى ثلاث ساعات ونصف أو حتى أربع ساعات للوصول إلى المنطقة التي تبدأ منها الأدغال وهي معزولة تماماً عن المدينة وإن كانت ملاصقة لها ولعمرانها ، وذلك لكي لا تتسرب الحيوانات المفترسة ويحدث ما



عينيتي للكاميرا والزلاء يراقبون من بعيد

لا يحمد عقباه!

كان السؤال الأول الذي شغلنا عند الاقتراب من الأدغال ، ما إذا كانت هذه المنطقة خالية من وباء الملاريا الذي تشتهر به بلدان أفريقيا تحديداً ولم تتمكن من التخلص منه ، برغم التقدم العلمي وبرغم أن دولاً كثيرة في العالم برئت منه ومن انتشاره ، فأكد لنا الشخص المرافق من اللجنة المنظمة أن لا وجود للملاريا هنا .. وقد نصحنا أيضاً بالإقفال التام لنوافذ الحافلة ، وكانت نصيحة تحمل نبرة التحذير الواضحة!

بمجرد الدخول إلى الأدغال .. تتكون أمام ناظريك مشاهد لم تكن تتخيل أنك ستعيشها يوماً .. عشرات الأصناف من الطيور والحيوانات المنطلقة في كل حيز .. الأفيال .. النمور .. الأسود .. الجواميس .. وحيد القرن .. والكثير من صنوف

الحيوانات التقليدية التي تشتهر بها جنوب إفريقيا ..
دقائق معدودة مرّت قبل أن يبدأ (العرض) الخطير بغتة ومن دون سابق إنذار !! لقد أحاطت بالحافلة مجموعة من الأسود ، وكانت تجري ببطء أي بنفس السرعة التي كانت عليها حركة الحافلة في الطريق الترابي الضيق!
(لا تسلّم نفسك للهلّع .. فلا شيء مما تتخوف منه سيحدث)!!
كانت هذه كلمات المرافق الإفريقي الذي طمأننا بأن كل الأمور ستمضي على ما يرام ما دمنا قد أغلقنا النوافذ .. غير أن الهلع كان لا بدّ أن يتملكنا .. فالأسود كانت تضرب بأرجلها جوانب الحافلة ونوافذها وإطاراتها، وكان السؤال الذي ربما تبادر إلى ذهن كل من وصل إلى هنا من السائحين : ماذا لو تعطلت بنا الحافلة الآن ونحن وسط هذا الحصار الذي لا



الشيتا المفترسة وقد حال الحاجز بيني وبينها

يرحم؟! ربما كانت (وليمة) كبرى لم تكن الاسود قد وضعتها في الحساب!!

* * *

مشهد آخر تابعٌ تفاصيله بدهشة لا توصف .. في هذا الجزء من المنطقة والذي تكثر فيه الأسود ، ولن تجد حيوانا آخر باستثناء الطيور التي تدرك بالغريزة أنها بعيدة عن متناول الأسود ، رأيت رجلا إفريقيا طويل القامة وهو يمشي في هدوء خلف أسد بالغ الاعتداد بنفسه .. كانت خطوات الشخص محسوبة تماما ، وكأنها تمضي على إيقاع منتظم متفق عليه تماما .. كيف يمكن أن يحدث الوفاق هنا ونحن في الأدغال ولسنا في سيرك يحتمل فيه الأسد الترويض والرفقة مع أستاذة؟!

تدخل المنظم الذي رافقنا في الرحلة كي يشرح الأمر بإيجاز : الأسد هو الملك هنا .. هذا ليس كلاما للإنشاء ، إنما أنا أعني ما أقول تماما .. لا سلطة تعلو على سلطته .. لاحظوا أن الرجل لا يمكنه أن يمشي إلا إذا مشى الأسد ، فإذا توقف (الملك) ، كان على الرجل أن يتوقف فوراً وإلا دفع حياته ثمناً لخطوة واحدة .. إنها مملكة (الأسد) ولا بد أن يطيعه الجميع .. الحيوانات .. وبني البشر!

* * *

ساعات النهار كانت تمضي بتدفق عجيب .. لم نكن ننتبه إلى أن الساعتين اللتين تمّ تخصيصهما من حيث المبدأ لدخول الأدغال واكتشاف عوالمها وأسرارها ، قد أصبحت سبع ساعات .. أهم ما فيها محاولتنا الوصول إلى عرين الأسود المغلق في مكان آخر وصل إليه نجوم الكرة العالمية قبلنا ، والتقط فيه معظمهم الصور من وراء السياج ، إلا المنتخب الألماني الذي أصرّ على الدخول وقد وقّع أفراداه على إقرار بأن الجهة المنظمة لا تتحمل مسؤولية أي خطر يمكن أن يحدث بهم! وصلنا بعد انتصاف النهار ، وقد دخلت الأسود إلى عرينها بعد أن تناولت طعامها .. ولم يبق في التلة أو الجبلية الصغيرة المجاورة سوى أشبالها التي تجري وتلعب بخفة ورشاقة .. بعضنا - وهذا شأن أغلب الزائرين - فضلّ المشاهدة من وراء السياج ، فيما قررت أنا وعدد من الزملاء أن نمضي بالمغامرة إلى أقصى مدى!

سمّها ما شئت .. هل هي شجاعة هبطت فجأة على رؤوسنا وأنستنا صوابنا ؟ أم أنه التهور في أقصى صورة؟ .. مرّت الدقائق وأنا اتجوّل بين الأشبال وأجلس أمامها ، والتقط لها الصور .. مرّت بسلام ، وكان واضحاً أنني لم انتبه إلى ما فعلت إلا حين عبرت السياج وغادرت التلة الصغيرة وعدت لاندماج مع الناس التي كانت تنظر من بعيد!



التحذير في كل مكان من خطر الحيوانات المفترسة



اضحك تطلع الصورة حلوة .. ولكن بأي ثمن؟!

حين المغادرة ، شعرت أنني كنت مجازفا وليس مغامرا .. مشاعري قد تبيّست تماما وعلامات الذهول تعتليني وتعتريني .. فالفرق بين وصف المجازف والمغامر كبير ، واحتمال المواجهة مع صغار الأسود كان ممكنا ومتاحا ، ولا يمكن بعد أن تقع الكارثة أن أجد أصابع لي أعضها تعبيرا عن الندم!!
لكن مشيئة الخالق كتبت السلامة لي ولمن اختار المواجهة من الزملاء ، فخرجت من المنطقة المسيجة لبدأ شعور مختلف بالتسلل إلى أعماقي .. شعور المنتصر في مواجهة مع الذات في لحظة إنسانية كنت اتصور نفسي قويا فيها ، فاكشفت كم يبدو الإنسان ضعيفا بعد التجربة .. وليس قبلها!



فضلت أعيش في قلوب الناس.. وكل عاشق قلبي معاه!!

البحث عن جذور أم كلثوم الكروية !!

كثير من النجوم تغطي أعمالهم على حياتهم ، إلى الدرجة التي يتخفى فيها المبدع بين ثنايا عمله ، وتتوارى ملامح شخصيته وتكاد تختفي تماما وراء الستار .. وهكذا هو شأن أم كلثوم! يمتد صوت أم كلثوم عبر الأفق ساحرا آسرا ، لا قدرة لك على مقاومته .. ففيه تكمن لوعة الحب وحلاوته .. لهذا تربعت سيدة الغناء العربي على عرش القلوب العربية ، حتى بعد الرحيل ، وحتى بعد أن انطوت آخر وصلة من حفلاتها الحية كل شهر ، وحتى بعد أن انفص عشاق صوتها عن المسارح التي اعتدت أن تلتقيهم فيها ، وحتى بعد أن تبدل معنى الحب ، فلم تعد المشاعر في يومنا هذا كذلك التي كانت في زمن أم كلثوم ، توضع على ميزان الذهب ، وتوزن به ، فلا إفراط ولا تفريط!

في أغنيات أم كلثوم قصص وحكايات تخفي لوعة ، وتطلق آهة ، وينبعث أمل ، ويجري الإقبال على الغد بحب واستبشار .. وفي كل حال ومقام ، تبقى فاطمة إبراهيم البلتاجي ناطقة بلسان العشاق هيما أو حزنا! الصلة بيننا وبين سيدة الغناء العربي توطدت حتى بعد رحيلها .. كيف لهذا الرباط الوثيق أن ينقطع أو يصيبه الوهن ..

نحن نفتقدها ، ولا نجرؤ على الحب من دون صوتها .. وربما هذه هي النقطة التي قدحت في الذهن لتكون البداية التي يختزلها سؤالنا وأنا أمضي مشوار الصيف المعتاد بين حوارى وأزقة ومعالم القاهرة المعز : ماذا عن جذور أم كلثوم الكروية؟! سؤال أقبل على الفكر في أوانه ، أو حلّ في غير مواعده .. لكنه كان يستوجب منى مشوارا استثنائيا وسط زحمة أم الدنيا

للبحث في جزئية كروية من اختصاصي عن مبدعة كان غناؤها شأننا يخصّ الناس جميعا .. على الأقل العشاق منهم!

* * *

من كتب عن أم كلثوم وهم كثيرون حاولوا اقتفاء أثرها الفني ، ولم يفلحوا إلا في مرات محدودة وضيقة في اقتحام عوالمها الخاصة أو الشخصية ، وبينهم الكاتب المصري الكبير محمود عوض في كتابه الرائع (أم كلثوم التي لا يعرفها أحد)!

نجح عوض في سبر أغوار أم كلثوم ، وتوقف عند محطات خفية لم يدركها كثير من المحيطين بها ، لكنه لم يجرؤ على الخوض في ساحة بقيت خالية وعصية على الجميع .. علاقة أم كلثوم معشوقة الجماهير بكرة القدم ساحرة الملايين!

كنت كثيراً ما أثير سؤالاً عما إذا كان لدى كوكب الشرق عشق للكرة ، وقد قرأت من قبل أفكارا متفرقة عن ولع كوكب الشرق بكرة القدم ، حتى أنها كانت في بعض الأحيان والمناسبات تترك مشاغلها العائلية والفنية بما فيها التحضير لحفلاتها المعتادة عند كل أول خميس من الشهر لتتفرغ لمتابعة مباراة منقولة عبر التلفاز ، أو أنها

تعقد العزم على الذهاب إلى الملاعب بنفسها ..

وهذه الأفكار التي كنت اتبّعها بين حين وآخر حال توفرها ، هي التي دفعتني إلى اقتفاء هذا الأثر في نفسي وأنا أمضي



عند المدخل كان الأمل في العثور على أثر كروى لكوكب الشرق

نهارا كاملا في المتحف الرائع الذي أنشئ لمقتنياتها وكنوزها وآثارها الشخصية .. متحف يُطلّ على ضفاف النيل في منطقة الجزيرة عند (المنيل) حيث يستدير النهر الخالد مُخلفا انعطافة ساحرة تزداد ألقا حين يتهدى إلى الفضاء من هناك صوت أم كلثوم في إحدى أغانيها بينما الزائرون القادمون من أماكن قريبة وأخرى قصية من العالم يواصلون التجوال في أروقة المتحف وأجنحته والحديقة المحيطة به ، في رحلة اكتشاف أخرى مختلفة لأسرة القلوب .. أو المتحدثة بلسانها!

* * *

مقتنيات تتوقعها في مكان بارز واسع كهذا .. تسجيلات وبدلات ولوازم الحفلات وقصاصات صحفية وصور مع مشاهير



أم كلثوم في ملعب الاسكندرية تتابع إحدى مباريات الكرة

العالم وزعمائه ، وثمة تفصيلات أكثر منها تختفي ولا تكاد تجد لها أثرا .. الأمر ينطبق - عندي - على أم كلثوم التي كانت تقول .. (كل منا يبحث في السعادة عن الجزء الذي يهيمه) ، فهل كانت أم كلثوم مولعة بكرة القدم؟! كتبت في صحيفة (البعث الرياضي) عام 1987 مقالا بعنوان : (لاعب الكرة في تعريف كلثومي)!! وقد استندت فيه إلى ما قرأته في صحيفة (أخبار اليوم) في ذلك الوقت ، ومما جاء في مقالي :

- حاول أحد كبار نقاد الرياضة في مصر ملاطفة سيدة الغناء العربي الراحلة أم كلثوم بأن طرح عليها سؤالا يتعلق بتعريفها للاعب كرة القدم فقالت:

- لاعب الكرة بحق وحقيق هو اللي يعجبني .. واللاعب اللي يعجبني هو اللي يعرف يجيب جون (گول) مش الي يقع

وقت اللعب!

وقلت في مقالتي : اعتقد أن تعريفاً كلثومياً بهذه البساطة ، يحمل بين طياته سخرية لاذعة من اللاعبين الذين يتمازضون أثناء أداء الواجب .. فبدلاً من أن يجيدوا التعاون مع الزملاء والتمرير وتسجيل الأهداف ، نراهم يهيمون عشقاً بطرق التكاسل!

وليس غريباً على أم كلثوم الذكية في غنائها واختياراتها للكلمات والألحان أن تضع التعريف على هذا النحو .. ولا يخالفني اللاعبون الذين كانت أم كلثوم تقصدهم ، لأن مظهرهم واضح!!



مانشيت صحيفة (الملاح) العراقية .. أم كلثوم تغني في بطولة كأس العرب في بغداد

* * *

طرحت سؤالاً عن صلة أم كلثوم بالكرة على أحد المسؤولين عن المتحف ، وهو السيد أحمد كمال إذا لم تخني الذاكرة .. فاعترف الرجل أن كل التفاصيل التي يراها الزائر ركزت بالدرجة الأساس على الجانب الفني وكل ما يحيط به من أبعاد اجتماعية وسياسية وحتى اقتصادية .. لكن الجانب الرياضي غير مرئي هنا .. حتى في الفيلم الوثائقي الطويل عن حياة أم كلثوم من بدايتها وحتى الرحيل اختفى هذا الجانب!

لكن الرجل بعد أن تعرف علي وتأكد تماماً من عشقي لسيدة الغناء العربي ومحاولتي فهم الجزء الذي يعنيني مهنيًا من حياتها ، اقترح أن نتخذ مكاناً في الحديقة الواسعة التي تحيط بالمتحف لكي يروي لي ما يعرفه عن أم كلثوم وكرة القدم!



أم كلثوم كسرت القاعدة وابتعدت عن التعصب الكروي

التمعت عيناى سرورا ، وأخرجت ورقى وقلمى ورحت أسجل عن لسانه بعد أن عرفت فيه شغفه - هو الآخر - بكرة القدم فازدادت الصلة وثوقا بينى وبينه!

قال لي : أم كلثوم ، خلافا لما هو شائع عن عبد الحليم حافظ وفريد الأطرش ، لم تكن تعلن عن حبها أو ميلها إلى ناد معين .. حليم كان متعصبا بشدة للنادى الأهلي ، وفريد كان من أقرب الناس إلى نادى الزمالك ، وكان عشاق المطربين يتوزعون بين الاثنين طبقا لهذا العشق الكروي وهذا ما لمستته بنفسى بداية العقد السبعيني .. أما أم كلثوم فكانت تقول إن الفرق المصرية كلها فرقها ، وإن اللاعبين جميعا هم أبناءها .. وقولها إنها لا تشجع إلا المنتخب المصري لا يمثل هروبا أو تهربا من الحقيقة ، فنحن لم نلمس لديها ميلا إلى ناد معين حتى إذا ذكرت لك حادثة تاريخية تعود إلى بداية الستينات! تهلل وجهي فرحا وكأنني اكتشفت ما يُعدّ محورا ثمينا في هذا الحوار ، وأصغيت له وهو يقول : كثير من الذين أرخوا لحياة أم كلثوم يقولون إنها كانت تشجع نادى الاتحاد السكندري وهذه معلومة ليست صحيحة رغم اقترانها بحادثة (كروية) تاريخية!

ففي تلك الفترة ، كان النادي يعيش ضائقة مالية شديدة الأثر على نشاطه وحضوره ، بعد أن أنفق ميزانيته المحدودة في الأصل على بناء جانب من المدرجات الخاصة بملعب النادي .. نتج عن ذلك توقف العمل في المدرجات ، كما أنه كان من المستحيل على فرقه أن تواصل نشاطها ، وهو ما أدى بالنتيجة إلى فترة سبات عصيبة مرّ بها النادي بينما كانت الأموال

تُنفق في الغالب على المجهود الحربي!

عجز المسؤولون في النادي عن العثور على أية وسيلة تنتشلهم من الضيق الذي كان يحاصرهم ، ولما علمت أم كلثوم بهذه التفاصيل اتخذت قرارها بأن تقيم حفلة خاصة في مدينة الإسكندرية يُخصص ريعها لإخراج النادي من أزمتته المالية .. وقد كان حفلا من أروع ما أنجزت أم كلثوم في حياتها .. ترنمت بأحلى أغانياتها ، واستجابت لجمهورها في الإعادة ، وخرجت من الحفل بمبلغ كبير كان كافيا لأن يحقق لنادي الاتحاد السكندري الغيتين : استكمال بناء مدرجاته ، والصرف على فرقته وأنشطته ريثما يأتي الدعم الحكومي المعتاد!

اعتُبر هذا الموقف علامة مشرقة ليس في مشوار كوكب الشرق فحسب ، وإنما في تاريخ النادي السكندري أيضا .. حتى أن كل عضو في النادي صار يتحدث عما قدمته أم كلثوم ، وكان هذا الأثر ينتقل من جيل إلى آخر!

* * *

عدت للاستفهام من السيد أحمد كمال عما إذا كان حب أم كلثوم لكرة القدم قد تخطى الحدود المصرية أو (الجمهورية العربية المتحدة خلال الستينات بعد الوحدة مع سوريا) ، فأورد لي معلومة استوجبت مني التأكد منها لدى العودة مباشرة إلى بغداد!

فقد ذكر لي المسؤول في متحف أم كلثوم أن المرة الوحيدة التي كانت ستغني فيها أم كلثوم خارج الحدود في مناسبة مباراة أو حدث رياضي ، كانت بطولة كأس العرب في بغداد عام 1966 ، فقد نشرت الصحف المصرية أن سيدة الغناء العربي ستسافر إلى العراق للغناء في افتتاح هذه البطولة ، وذلك بعد اتفاق تم بين الرئيس جمال عبد الناصر وعبد



ثومة وزوجها حسن الحفناوي ينفعلان للمحة كروية

بالزيارة التي لم تتم في عام 1966.

إِذَا ، فالرجل في متحف أم كلثوم لم يكن مبالغا أبداً ، والأكثر من هذا وجدت عنوانا في صحيفة (الملاعب) - شهر آذار 1967 ، يقول : أم كلثوم تغني لفريقنا المنتصر.. ربما كانت في العنوان إشارة إلى حفل متأخر لأم كلثوم بعد أن وعدت بالحضور إلى بغداد خلال إقامة كأس العرب ، أو أنها كانت ستبادر إلى الغناء في مناسبة أخرى!

* * *

اللقاء الكروي النادر مع أم كلثوم

حمل الحوار الموسع العناوين التالية:

* * أم كلثوم تقول : تحياي وتمنياي للشعب العراقي العظيم

* * أم كلثوم تحب الرياضة وتمارسها يوميا ..

* * تحيات (ثومة) إلى شعب العراق ورياضيه

* * قريبا ستغني سيدة الطرب في بغداد

وقد تصدّرت الحوار صورة نادرة لأم كلثوم وهي على المدرجات تشاهد إحدى مباريات كرة القدم عام 1955 برفقة

زوجها الدكتور حسن الحفناوي .. وقد بدا على سيدة الغناء العربي الاندهاش وهي تتابع إحدى اللحاحات التي تجري

أمامها ، ربما من باب الاندماج مع الجو الكروي الذي كانت فيه!

أما أبرز ما جاء في سياق الحوار ، فاقتطع منه التالي:

* * هل تحبين الرياضة؟ أقصد .. ما رأيك بالرياضة؟

- أحبها جدا .. وهل يوجد هنالك من لا يحب الرياضة!

* * تمارسينها؟

- طبعاً .. ولكن لا ألعب كرة السلة أو الطائرة .. وضحكت.. ثم عادت لتكمل حديثها الساحر : أنا فعلاً أمارس بعض

الحركات السويدية كل صباح .. إضافة إلى كوني أمارس رياضة السير على الأقدام ولمدة ساعتين في اليوم ..

* * وما رأيك بكرة القدم ؟



في متحف سيدة الغناء العربي .. الكرة مفقودة

- وبحلم .. وجمال .. ونغمة حلوة قالت : يا سلام! .. العالم بأجمعه يحب كرة القدم .. وكثيرا ما أحضر المباريات المهمة .. وأشاهد أكثرها على الشاشة الصغيرة عندما تمنعني أعمالتي من الذهاب إلى الملاعب.

* * وماذا عن الست .. أهلاوية أم زملكاوية؟

- أنا لست من هؤلاء .. أو أولئك .. والنادي الذي يعجبني هو الذي أزوره .. وأنا أزور جميع الأندية .. إن النادي الجيد بنظري هو الذي يعمل على رفع اسم بلده وأمته عاليا ، فمثلا يوم فاز الزمالك بكأس مصر أقمت له عشاء في داري .. وغنيت تبرعا مني وتشجيعا له .. أما آخر مباراة حضرتها فكانت بين الزمالك وويستهام الانكليزي وفاز بها الزمالك بخمس إصابات مقابل إصابة واحدة .

* * كنجمة لك ملايين المعجبين من الرياضيين في البلاد العربية ، فلا بد أنك معجبة ببعض الرياضيين !

- الحقيقة أنني لم أشاهد رياضيي الأقطار العربية ، ولذلك يصعب علي أن أحكم عليهم ، غير أنني أستطيع القول إنني معجبة بهم جميعا لأنهم يخدمون أمتهم وأوطانهم عن طريق الرياضة .. أما من المصريين ، فيعجبني عادل هيكل ومكاوي وحجازي وصالح سليم ورأفت ورفعت الفناجيلي ويكن وكثيرون غيرهم.

* * الجمهور العراقي يعيش بأمل لقياك .. فمتى تحققين رغبته؟

- قريبا جدا .. واعتقد أنك تعرفين مقدار حبي للعراق والعراقيين .. وإن بي شوقا لزيارة العراق ، وأؤكد لك أن زيارتي ستكون قريبة .. إن سعادتي تكبر عندما يطرح علي مثل سؤالك من كل عراقية وعراقي ألقاه .. فبلغي تحياتي للجميع .. وخاصة الرياضيين ..



شبيهة أم كلثوم .. مصرية شجعت منتخب الفراعنة في مونديال 2018



غلاف جريدة (الملاح) 1967م كلثوم تغني لمنتخب العراق

* * *

لم تتم الزيارة التي وعدت بها سيدة الغناء العربي إلى بغداد ، ربما بسبب تطورات الموقف السياسي عند بداية السبعينيات ، أو ربما لاشتداد المرض عليها .. فرحلت من دون أن تفي بوعد لها للعراقيين .. اكتفت السيدة بالوعد الشامل الأوسع للقلوب والعشاق وهو أن تبقى صوتا للحب يجري على كل حنجرة ولسان!



البرازيل.. بلاد السامبا.. وأشياء كثيرة خفية!

غارة – بالإكراه – على تجار المراهنات!

حين وضعت قدمي في ساو باولو أكبر مدن جمهورية البرازيل الفيدرالية (هذا اسمها الرسمي) ، كان همّي مختلفا واستثنائيا وفيه الكثير من حب الاستطلاع الذي ربما كان سيؤدي إلى مشكلة كبرى .. أو حتى كارثة! اتصلت من مطار ساو باولو الكبير بصديقي ريكاردو بيريز الصحفي في مجلة (بلاك) الأسبوعية المتخصصة في كرة القدم ، وقلت له إنني أريد أن أبدأ بمجرد الوصول رحلة البحث عن حقيقة ما يقال عن المراهنات وفسادها وتأثيرها على نتائج المباريات في مختلف تدرجات الدوري البرازيلي! أجاب مشجعا ومندehشا في الوقت نفسه : هذا موضوع لا يمكن الإلمام به في أيام ، والصحافة هنا تكتب منذ عقود عن تأثير مكاتب المراهنات على المباريات ، ولم تتمكن السلطات من ضبط الكثير من التفاصيل! قلت له : فلنحاول أن نجد شيئا نتبعه ثم نكتب عنه .. بالنسبة لي أريد أن أؤدي بالضبط دور الصحفي المستطلع ، وليس مفتش المباحث الذي يريد أن يسلط تهمة السجن على المتلاعبين!

* * *

والمراهنات جزء يمكن وصفه بالحيوي من الثقافة الرياضية السائدة في البرازيل ، فالمشهد الأكثر تأثيرا في النفس ، وهو مشهد مألوف تماما هنا في ست وعشرين ولاية تضمها البلاد ، أن الناس من انتماءات شتى يجلسون في المقاهي والحانات وحتى الأماكن العامة ، يتابعون المباريات وفي أيديهم أو في جيوبهم قصاصات الورق التي تحمل رهاناتهم .. وقد تحولت

هذه القصصات إلى أمل مستديم يرجو كل منهم تحقيقه ، لينتقل من طور حيائي إلى آخر .. بعضهم كانت الجائزة كبيرة بالنسبة له وإلى الحد الذي نقلته من أحياء الصفيح الفقيرة إلى شقة فارغة تطل على (باوليستا) الشارع الرئيس في ساو باولو .. شارع عامر بالمحلات التجارية الكبرى والمولات حيث تتجلى الماركات العالمية لكل ما يخطر في البال!

وفي الفئة الأكثر شهرة من المراهنات في البرازيل ، ما يجري كل أسبوع من الدوري ، حيث يضع الشخص رهانه على (14) مباراة يختارها بنفسه من بين مجموع مباريات الدرجتين الأولى والثانية ، ويبدأ مبلغ الرهان بخمسة ريالات أو ما يعادل دولارا أمريكيا واحدا ، وكل ريال هنا يساوي مائة سينتافوس ، والعملة السابقة للبرازيل كانت الكروزيرو .. وتتلقى المكاتب الصغيرة الأنيقة المنتشرة في البلاد ، رهانك ثم تبدأ هواجس الانتظار لما ستسفر عنه المباريات ، وبالتالي نصيبك من الجائزة والفرح والانتقال إلى دنيا مختلفة ، أو من الفشل والإحباط .. لتعاود الكرة في الأسبوع المقبل .. لعل حظك يكون أوفر!

مكاتب المراهنات هنا مُرخّص لها تماما من قبل الحكومة وهي تقع تحت أنظار الجهات الرقابية ومنها الشرطة تحديدا ، وهنالك قانون للعقوبات صدر في شهر كانون الأول من عام 2018 قيل إنه ينظم كل ظاهرة غريبة أو مريبة في المراهنات!

لكن من الناحية العملية لم يتم تطبيق هذا القانون إلا في حالات محدودة ، وذلك لشيوع مفردات مثل تمرد .. تلاعب .. رشوة .. تهديد .. تزوير ، ولهذا بقيت المضاربات التي يجريها الكبار في السر بينما الناس تضع رهاناتها بشكل علني وأصولي!

* * *



مكتب مراهنات على مباريات كرة القدم في البرازيل .. كل شيء هادئ قبل تدخل الشرطة!

في الطريق إلى وسط المدينة كنت في حوار مع الصحفي بيري ز .. قلت له : هل أنت مؤمن بالشعار الذي ترفعونه في البرازيل : (أكتب رهانك ، واكسب الجائزة)؟!

- صدرت منه على الفور ابتسامة ذات مغزى ، ثم أجاب : دعني اتبسّط في توضيح المسألة ، وهي بالفعل مسألة شائكة للغريب القادم من وراء الحدود .. فالتقديرات المبدئية تشير هنا إلى أن شركات المراهنات تجني ما معدله (4) مليارات ريال في السنة الواحدة .. والسّر في ذلك أن بعضها يعمل خارج أطر القانون ، ولا تندعش لهذا .. فالجميع يعلم الأثر الذي تتركه المراهنات ، حتى أكاد أقول إن من النادر ألا يشترط أحد من المعنيين في المباريات هذا الأمر .. مؤكّد أنك تسمع عن المحاكم وما يدور فيها من تهمة للاعبين ومدربين وشخصيات نافذة في الأندية والبلاد!

** وكان سؤالى : ألم تنتبه الحكومات المتواصلة في البرازيل إلى هذه الظاهرة المستشرية ، لتجد علاجاً شافياً لها .. إن



الترويج للمراهنات والبحث عن مستقبل سعيد .. في الشوارع!

المراهنات تتعامل مع سمعة الكرة البرازيلية وهي الرائدة عالمياً في هذا المجال؟! - قد لا تعرف أن الشعب البرازيلي سبق كثيراً من شعوب العالم في المراهنات الكروية .. هل تتخيّل أن المراهنات بدأت عندنا عام 1946 ، وقد رافقت مباريات الدوري في نسخته القديمة ، قبل أن ينتظم بشكل كامل في عام 1959 .. وإذا كان الرهان في البريمير ليغ الإنكليزي هو الأبرز على مستوى العالم بوجود عشرين نادياً في هذه الدرجة ، فذلك يعود إلى القيود القاسية التي تفرض هناك والتي لا تتيح مجال التلاعب في نتائج المباريات .. قل لي كم فضيحة تلاعب جرى كشفها أو الإعلان عنها هناك .. للمراهنات في انكلترا وأوروبا ضوابط ، والحسابات المالية تتولاها جهات رسمية موثوقة فيها .. أما في البرازيل ، فالمراهنات الكروية بالذات تخرج عن إطار المعقول والمألوف ، حتى أنها توصف في العادة بأنها مراهنات خارج على القانون!

** لم تجبني عن سؤال .. ألم تجد السلطات الرسمية منها في التعامل مع المراهقات؟!

- كان من بين هذه الحلول استخدام شبكة الانترنت و(الرهان أو لاين) سعيا وراء الشفافية والنزاهة على الأقل من جانب الشخص الذي يدفع من جيبه وهو جالس في بيته .. وما حدث أن الانترنت أسهم بالدرجة الأساس في توسع ظاهرة المراهقات وبالتالي زيادة الأرباح التي انعكست بشكل ايجابي على الدعم المقدم للأندية وللدوري ، ولا شك أن العملية أسهمت في تقديم بعض الأمان هنا ، ولا أقول الأمان كله .. فأنت لا تستطيع أن تتسلل إلى الأنفوس لترى ما يدور فيها من حسابات أو طمع أو رغبة بالعبث في نتائج المباريات .. أتحدث هنا لاعبين أو مدربين أو إداريين !

* * *

ثم كان الفصل الأكثر إثارة في مغامرتي وسط مدينة ساو باولو ..



ربما يكون النسخة البرازيلية .. من مهدي المشجع!

كانت فكرتي أن اخرج النقود من جيبتي وأقف مع الناس في الطابور وصولا إلى منفذ تسجيل الرهان ، لكن الزميل البرازيلي لم يجذب الفكرة ربما لمعرفته بحقيقة ما يجري أو سيجري ، فوقفنا - بدلا من ذلك - عند واجهة أحد مكاتب المراهقات ، وكان الانطباع الأول ذلك الانتظام الواضح في وقوف الناس عند البوابة .. هنالك ثلاثة منافذ لتسلم أموالك وتثبيت رهانك ، وبالطبع فإن مشهدا مريحا كهذا لم يكن يدخل في نفسي أي شك في ما يجري أمامي! فجأة .. شهد المكان حركة غير طبيعية .. هناك من أسرع داخل المكتب ليعبث أو يقلب في الأوراق ، واستدارت الوجوه المنتظمة في الطابور إلى الخلف لتجد قوة من الشرطة وقد أحاطت بالمكان!

لم أفهم في بادئ الأمر ما يجري أمامي حتى سحبني صديقي بيريز بعيدا عن المكان ، ليقول لي : ما كنت أنت تتساءل عنه ، يحدث الآن أمام ناظريك ، فقط تفرّج .. بين حين وآخر تتحرك الشرطة نحو مكتب من مكاتب المراهقات ، كي

تضبط حالة .. ربما تكون هذه الحالة تلاعبا واضحا له صلة باعترافات من لاعب أو مدرب أو قطب في ناد من الأندية! كانت الدهشة تتملكني وأنا أراقب ما يجري ، وكان علينا الانتظار لمدة قاربت نصف الساعة كي نتثبت مما يحصل .. بعد هذا الزمن الطويل في عُرف الأحداث المثيرة ، خرج رجال الشرطة ومعهم رجل جاوز الستين من عمره! كان واضحا أن هذا الرجل مطلوب أو مقبوض عليه .. وحين خرج رجال الشرطة من غرفة داخلية في عمق المكتب إلى الشارع ، لم يجدوا أحدا من هواة المراهنات في انتظارهم .. لقد تفرق الجميع وأسرعوا في المغادرة لئلا يصيبهم ضرر له صلة باقتياد الرجل!

التفت رجال الشرطة ذات اليمين وذات الشمال ، ولم يجدوا غير زميلي الصحفي البرازيلي بيريز وغيري .. فأقبل أحدهم نحونا مسرعا ، وكان السؤال عما نفعله هنا!

تمالك بيريز نفسه ودخل في فاصل تمثيلي غير متوقع .. لقد غيّر معالم وجهه وتبدلت لهجته تماما ، ورد بعنف على الشرطي : وما شأنك أنت؟!

كان عليّ أن ادخل بسرعة قبل أن يتطور الخلاف أو الشجار .. أوضحت للشرطي أنني صحفي يحلّ ضيفا على البرازيل ، وقد جئت من بلاد بعيدة ، ولا شأن لي بالذي جرى!

التفت الشرطي إلى الصحفي البرازيلي وصدرت منه نظرات تقدح شررا ، لكنه تدارك الأمر بابتسامة خفيفة وقال موجها كلامه صوبي: المعذرة .. ما شاهدته قبل قليل أمر يحدث أحيانا ، علينا أن نتحرّى وأن نتابع .. فهناك الملايين التي ينفقها الناس ليس من باب حب الكرة إنما سعيا للربح .. الربح يكمن في خيالاتهم غالبا ، ويتحقق في مرات نادرة .. أما الخيوط الخفية التي تدير مراهنات الكرة ، فهي التي تجني الملايين بعد أن تمتص دماء الفقراء مثلي ومثل زميلك الصحفي الساخط هذا!!



اشترؤا اذكار الرهان ولوحوا بعلامه نصران يتحقق غالبا!



الشاي الذي يقدمه التمثال هنا ليس ساخناً!

جدل عقيم حول (قدسية) ألف ليلة وليلة!!

عام 1998 أمام مسجد كانديبيل اكبر
المساجد في العاصمة عشق آباد ..
الجليلد يطغى على المشهد



ليس عجباً أن تسبق أخيلتك كل الصور التي سمعت أو قرأت عنها وأنت تتوجه إلى إحدى جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق!

فأنت هنا تبعث الدفء في حساباتك ، وأنت تتخيل أية جمهورية منها وهي نسخة طبق الأصل لأية جمهورية (شقيقة) خارجة هي الأخرى من نطاق أو سور حديدي كان يحيط بها تحت هيمنة الشيوعية التي كانت تهتف بشعارات الكرامة والنضال والكفاح حتى عند أبعد نقطة من الأرض ، في حين تتصور الشعوب جوعاً في الداخل السوفيتي فلا تجد ما يكفيها لسد الرمق!

كل الخيارات كانت تذهب في سبيل (النضال) العالمي ، بينما كانت شعوب ما يسمى الاتحاد السوفيتي تعاني الأمرين وليست لديها القدرة على الكلام ولو بالهمس أو بالصوت الخفيض ، حتى تكفل غورباتشوف في إحداث منعطف تاريخي أخرج فيه القطب الاشتراكي من ساحة السباق الثنائي مع الغرب ، لإنقاذ ما تبقى من قيمة لحياة البشر في بلاده! عشت هذه الصورة بكل تفاصيلها ، وأنا أحط الرحال في أكثر من جمهورية كانت تحمل الصبغة السوفيتية .. الطرق الواسعة نفسها ولكنها تشكو شح السيارات .. الميادين الفسيحة ذاتها كي تستوعب الاحتفالات المتكررة على مدار السنة

بالصمود والثبات على المبدأ .. الوجوه التي تطالعك في الشارع أو في أي مكان عام وردية الملامح يكتسيها الحزن أو حتى الغموض أو الاستغراق في التفكير بالمجهول القادم لا محالة!

* * *

حملتنا الحافلة العملاقة من بغداد ذات فجر شباطي بارد من بغداد عام 1998 ، واتجهت بنا نحن وفد فريق الشرطة الكروي إلى طهران كمحطة لأبد منها قبل السفر إلى عشق آباد عاصمة جمهورية تركمانستان .. الطريق المتعرج مثل أفعى عملاقة ، بين بغداد وطهران كان يخفي حساباتنا الكروية التي تنتظرنا في تركمانستان .. تجشم عناء السفر في المحطة الأولى كان سينتهي حتما عند رحلة جوية لاحقة ستوصلنا إلى المقصد الآسيوي الذي ينتظرنا!

وحين كانت الطائرة ترخي محركاتها إيدانا بهبوط سلس في أجواء عشق آباد ، كنت حريصا على أن أرى المشهد من فوق لكي أبدأ برسم الصورة على الأرض .. وكانت الملامح كالتالي : اللون الأبيض ملاً الأفق ، فالثلج يغطي كل مساحة يمكن أن يصل إليها البصر ..

لا غرابة في أن يكون الجليد مهيمنا على المشهد ، ولكن ليس على ساحة المطار نفسه ، فقد كان منظر الجرافات لافتا وهي تجري في كل اتجاه لكي تزيح طبقات عالية من الثلوج ، بينما كان الصقيع يزداد وطأة في النزول ، كأنه في سباق تحقيق الإرادة في مواجهة الجرافات!

ومع الاقتراب من مدرج المطار كانت الملامح الصادمة تتضح : حركة الطائرات تبدو محدودة بل متدنية إلى أدنى درجة يمكن أن يستوعبها عقل .. سبقتنا طائرتان في الهبوط أو المكوث على أرض المطار ، بينما كانت منشآت المطار نفسه تعيدنا عقودا من الزمن إلى الخلف ، فالصورة الآن هي تشبه هبوطك على منطقة صناعية بكل محلاتها ومخلفاتها وحديداتها المتناثر .. ويمكنك بالضبط أن تتخيل نفسك في أجواء المنطقة الصناعية للشيخ عمر!



الحضور الطاغي في كل مكان للفنون المتأثرة بالطابع الإسلامي

لم يكن لدينا في الرحلة كلها سوى خمسة أيام بضمنها أيام السفر ، وبمجرد الوصول كان علي أن أغرق نفسي في هوايتي المعتادة وهي النزول إلى الشارع لكي أرى الناس ، وحياة الناس ، وملامح الناس عن قرب وليس عن سابق معرفة بالقراءة! في قلب النهار وعز الظهيرة ، لم تكن الصورة مشجعة على الإطلاق .. أنت هنا تتصور أن الناس مازالوا في بيتهم نياما خلال عطلة .. الشوارع تكاد تخلو من السيارات ، والسبيل الوحيد المتاح أمامك للوصول إلى أي مكان أن تستقل الحافلة الكبيرة وهي مقطورة معلقة بالأسلاك الكهربائية ، وهذا - بالمناسبة - مشهد ستجده في كل الشوارع الرئيسة للجمهوريات السوفيتية السابقة .. فالحافلة تسير في انتظام على سكة معلومة بجوار الأرصفة ، وهي تسير وفقا لحركة آلية مرسومة بالدفع الكهربائي!

كنت اتساءل : ماذا لو خرجت الكهرباء عن السياق المعهود وتسببت قدحة تماس واحدة بين القاطرة والأسلاك الغليظة في اشتعالها؟!

المهم أنني مضيت إلى غاييتي الأولى وهي البحث عن السوق الشعبي الكبير حيث يمكن أن أضع نفسي بين الناس بكل تضاريس حياتهم .. وجدت هناك فرقا في النظرة إلى كل ما يتصل بالحياة ، فهناك مظاهر التمدن الشديدة التي تحاكي الغرب في الشكل والملبس وحتى إظهار الاتيكيت المُقَحَّم على الحياة هنا ، ووجدت اللباس الإسلامي واللحي غير الكثيفة التي تغطي جانبا من خدود الرجال ، فالشعر قد نبت متفرقا .. وقلت في دخيلة نفسي : هذه نقطة يمكن الابتداء منها! توجهت إلى بائع يعرض كنبه على الرصيف وقد خُصَّب لحيته بالحناء ، وكان واضحا عندي أن البائع العجوز يمكن أن يفهمني ، وقد امكن من الخوض في حوار معه!

بعد نظرة متمعنة في عناوين الكتب المعروضة ، امتدت يدي إلى كتاب (الف ليلة وليلة) مترجما إلى اللغتين الروسية والإنكليزية ، وأبرقت عينا البائع بالرضا حين سألت عن ثمن الكتاب ، ردَّ بما هو أشبه باللغة الانكليزية مع ابتسامة لا تخفى:



القبة التقليدية التركمانستانية .. وضحة ذات معنى للبائع



معالم عشق آباد .. نُصّب وتمثاليل من أروع ما يكون

- إنه كتاب ثمين حقاً!
- ألف ليلة وليلة . صح؟
- نعم ، وإذا دفعت لي بالدولار ،
فسأكتفي بعشرين..
- عشرون دولارا ثمن كبير هنا في
تركمانستان ، وأنا أعرف قيمة
العملة الأجنبية هنا مقابل (المنات)
التركمانستاني!
- بكم ينفعك؟
- سأدفع عشرة دولارات وأنا أعرف
أنها مبلغ لا يستهان به لديك!
- والكتاب أيضا لا يستهان به يا بني!
- لماذا .. لقد قرأته من قبل بنسخته
العربية وأريد الاطلاع عليه باللغة
الانكليزية!
- إنه كتاب مقدس .. فيه الكثير من
القصص والمواعظ التي يدعو إليها
ديننا الإسلامي الحنيف!
- من أين جاءت القدسية يا عم؟ ..
الكتاب تراثي وهو عبارة عن مجموعة
قصص وحكايات كما تقول ، لكنه ليس
كتابا مقدسا عندنا نحن المسلمين!
- كيف تتجاسر وتجروء على مثل هذا
القول؟.. (الف ليلة وليلة) من الكتب
المقدسة عندي وعند كثيرين هنا!
كان يجب عليّ أن أنهي هذا الحوار
بأي ثمن وعلى أن نحو .. فالفكرة هنا
لدى الكثيرين أن كل ما يصل من كتب
التراث سواء كانت إسلامية المنشأ أو

مترجمة ، فهي (مقدسة) ولا يجوز الطعن فيها وتحويلها إلى كتب أدبية!

أخرجت الدولارات العشرة من محفظتي ومددت يدي لتسليمها إلى بائع الكتب ، وكانت المفاجأة .. رفض الرجل تسلم

المبلغ وقال ساخطا : هل هذه هي أصول الإسلام؟

- ما المشكلة هنا ؟ لقد اشتريت الكتاب ، وهذا ثمنه!

- وهل يجوز أن تسلم لي المبلغ بيدك اليسرى؟!

- انتبهت إلى ملاحظة البائع وكان محقا فيها ، فنقلت الدولارات العشرة إلى يدي اليمنى وسلمتها إليه فتقبلها وكانت على وجهه ضحكة المنتصر!

* * *

هذه فكرة واحدة عن خلط أو ازدواجية يمكن أن تجدها في هذا البلد أو غيره من البلدان النائية .. لا أريد أن أدخل في التفسيرات أو التأويلات ، ولكن الفرق واضح بين وجهين : هوية الكتاب ، وطريقة تسلم النقود! كان هذا جانبا من الانطباع الذي ترسخ في الذهن لدى الزيارة الأولى لتركمانستان عام 1998 .. وبعد سنوات عديدة عدت إليها حاملا معي الرغبة في أرى جديدا قد جدّ بعد سلسلة من التحولات التي شهدتها منطقة وسط آسيا والمنظومة السابقة للاتحاد السوفيتي تحديدا ، ولكن ما انتظرت أن أراه كان الوهم بعينه!

ازدادت البلاد فقرا على فقر برغم أنها تسبح على بحر واسع من الغاز الطبيعي ، حتى أنه يقال إن تركمانستان ستكون واحدة من آخر ثلاث دول ستحتفظ بالاحتياطي العالمي للغاز ، فضلا عن معادن أخرى وفيرة كالذهب والفضة ، ولكن معها الحرمان لستة ملايين نسمة يشكون سكان البلاد وتتحكم بهم قلة قليلة من السياسيين والتجار والمتهندين ، وخصوصا أفراد (عائلة الرئيس) والذين زادوا على غيرهم في التسلط والهيمنة حتى أن أشهر السنة صارت تحمل أسماءهم وفقا للغة اليومية التي يتداولها الناس في خوف لا يخفى حتى على الغريب!

خرجت تركمانستان عام 1991 من منظومة دول الاتحاد السوفيتي حيث كانت تعاني نظاما شموليا بالغ القسوة والصرامة ، لتصبح دولة منفردة يعبث فيها الفساد .. فلا تعجب أبدا إذا سمعت أنها واحدة من أكثر الدول فسادا على امتداد العالم ، وقد اطلعت على إحصاءات وأرقام عجيبة ربما لم يكن في الإمكان ايجاد نظير لها إلا في دولة مثل كوريا الشمالية!

* * *



في بلد يسبح على بحار الغاز.. هذه هي بيوت السكن في بعض احياء العاصمة



المقاهي على الطريقة التركمانستانية .. جلساتها خارج المألوف

قلت لصديقي الصحفي نزار حيدروف وهو ينتمي إلى واحد من القبائل الأذرية المهمة وقد هاجرت أسرته إلى عشق آباد خلال العقد الستيني : دعنا نتجول في المعالم الرئيسة!

- متاحف .. أم حقائق عامة؟

- الاختيار متروك لك ، إنما أتمنى أن يكون المكان معلما مهما سيبقى محفوظا في ذاكرتي عن تركمانستان!

ذهبنا إلى المركز الوطني للفنون في قلب العاصمة عشق آباد .. المركز واسع ويمتد لمساحة لا يمكن حصرها بالنظر المجرد ، لكنني لاحظت خلوه من الزوار أو الرواد ، فكانت هذه فرصة لأن اطلع على طبيعة واتجاهات الفن التشكيلي هناك ، فكان الاكتشاف المهم بالنسبة لي!

لاحظت في المعروض من المقتنيات والتحف واللوحات خروجاً على المألوف (السوفيتي) المتوقع ، وتأثرا شديدا بالأجواء الإسلامية .. وقد أعادني ذلك إلى حكاية كتاب (الف ليلة وليلة) وما جرى بيني وبين بائع الكتب .. لكن الصحفي حيدروف أكد لي أن هنالك نخبة واسعة من أمهر الفنانين المتعلمين المثقفين الذين تمكنوا من فهم كل ما يدور حولهم ، مشددا على أن النسبة الأعظم من الشعب التركمانستاني متعلمة ويكاد البلد يحقق الرقم صفر في نسبة الأمية خلال السنوات الأخيرة! أدهشتني المعلومة الأخيرة من صديق أثق فيه ، برغم ما أجده من عزلة شديدة الوطأة تحيط بالبلاد ولا تسمح بالاتصال أو التواصل مع الخارج إلا ما ندر وإلا ما تسمح به مركزية الدولة ، والمركزية هنا تعني (القبضة الحديدية) التي تعني هي الأخرى الأسرة الحاكمة التي يتصدرها الرئيس قربانقلي محمديف الذي انتخب عام 2007 ، وقد شاهدت مداخلة له خلال جلسة للبرلمان التركمانستاني ، كان واضحا فيها أنه يهدد ويتوعد ويضرب بكفه على المنضدة ويكاد يقتلع المايكروفون الذي يتحدث من خلاله ، ولفت انتباهي أنه كان يؤدي حركات تمثيلية عصبية استوجبت مني الالتفات إلى الصديق التركمانستاني للاستفهام عما يدور فكان الجواب: الرئيس ساخط على النواب أو ما يسمى منهم نواب المعارضة!

- أريد أن افهم حركة يده وتلويحه بأصبع يده الأوسط امام الكاميرات!
- إنه يتوعد المعارضين بفعل فاضح إذا استمروا في نقد الحكومة!!

* * *

كانت هذه هي الصورة التي علقت في ذهني وأنا أودّع عشق آباد من مطارها الدولي الرئيس الذي يشكو قلة المسافرين فيه ، وهو واحد من خمسة وعشرين مطارا تتوزع في بلد تغطي الصحراء معظم مساحته الواسعة ، لكن شعبه لم يعرف حتى الآن شكل الاندماج بدنيا أوسع تحيط به!
تركمانستان تعيش العزلة .. سياسة لا رجعة عنها لدى أصحاب القرار .. واضح أنها السياسة اللازمة التي تهيئ للفساد والنهب والصوصية أن تنشأ هناك وتنمو وتدوم على رؤوس الأشهاد .. بعيدا عن انظار العالم الخارجي!



الجمال في الفنادق كدلالة لارتباط بالإرث الاسلامي !!



سحر الشرق يمتزج بثقافات شتى .. هذه هي الفلبين

وجبة غداء فاخرة .. فوق فوهة البركان!!

قيل لي قبل السفر إلى الفلبين : أحرص على تطبيق القواعد الست للسلامة والأمان هناك!
وكان السؤال للصديق الفلبيني الذي تعرّف إليه في الدوحة : وهل يحتاج السفر في مثل هذه الحال إلى قواعد ونظم صارمة ينبغي الالتزام بها طلبا للسلامة خارج الحدود؟

- نعم يا سيدي .. وهذه هي القواعد ، حاول قدر الإمكان اتباعها ولن تندم!

أولا : لا تخبر صديقا فلبينيا بمكان الفندق الذي تقيم فيه!

ثانيا: إذا خرجت من الفندق لعمل أو مشوار تسويقي ، فعليك أن تأخذ معك بطاقة تعريفية بمكان الفندق وأن تسلمها فورا إلى سائق التاكسي ، كإجراء احترازي مما قد يحدث لك في الشارع .. أنت هنا لا تضمن ما الذي سيجري أو سيحدث!
ثالثا: عند الإقامة في فندق ، اختر مكانا تحيط به الحركة الدائمة في الشارع وليس فندقا معزولا في الضواحي ، مهما كان هذا الفندق معروفا ، ولتكن الخطوة الأولى التي تحرص عليها وضع محفظة الجيب الخاصة بك في الصندوق الحديدي المشفّر بأربعة رموز والذي يتخذ مكانه في خزانة الملابس داخل غرفتك ، وخذ فقط ما تحتاجه من نقود.. لا تحمل كل ما



جلسة على ساحل البحر الطويل .. ونظرة على مجرى الحياة هناك

تملكه من عملة عند الخروج لأي شأن!

رابعا: لا تدخل في جدال مع أحد في أي مكان عام ، فلربما تجده فحا نُصب لك لاتهامك - بعد ذلك - بالاحتيال أو السرقة!
خامسا : لا تكلم أية فتاة في الشارع حتى لو حاولت الاقتراب منك والبدء في حوار أو حتى التسوّل.. فما يحدث بعد ذلك أنها تريد استدراجك لتجد مصيرك مُعلقا بكلمة يُطلقها زعيم عصابة في أحد الأزقة . أو ربما يكون هذا المصير مجهولا!
سادسا: تحت أي ظرف من الظروف ، لا تخرج من الفندق بعد غروب الشمس .. ففي الليل تسرح العصابات وتمرح ، وهي غالبا ما تتخذ أماكنها في مواجهة الفنادق الكبيرة التي تضم نزلاء أجنب ، لكي تمارس النصب والاحتيال ، وربما الخطف عند اللزوم!

هذه ليست قواعد للسلامة والأمان ، وإنما قيود ثقيلة ستجردني تماما من حريتي وانطلاقي في العمل والتنقل ، بمعنى أنني ذاهب إلى مصر مجهول ، ولكن كان عليّ في أية حال أن أذهب إلى مانيلا ، فلديّ برنامج وثائقي ينبغي أن أنجزه هناك بصحبة مصور ومخرج ..

ويبدو أن الجهة المسؤولة في الفلبين هي التي اعتادت أن تحرص أصلا على تنفيذ القواعد الست حتى من دون أن يطلبها الموفد الرسمي القادم من الخارج .. فلقد كان في انتظارنا ثلاثة أشخاص .. سائق ومرافقان .. والجميع على جانب كبير من الضخامة والقوة!

* * *

الفلبين .. شاهدة التاريخ وعبق الحضارة ومساقط الموجات المتتالية من الاحتلالات .. تظهر على خريطة القارة الآسيوية



الكاميرا تدور وبركان تآل خامد انتظارا لثورة أخرى

على أنها سلسلة أو كأنها عنقود منتظم من الجزر التي تحيط بها المياه من كل صوب .. سبعة آلاف جزيرة في انتظارك هناك!

في الشمال والغرب يحاذيها بحر الصين الجنوبي ، وفي الشرق هنالك بحر الفلبين ، وفي الجنوب بحر سولو ومعه ماليزيا التي تعدّ أقرب جيران الفلبين من حيث الطبيعة الأرضية ..

اللغة الرسمية في الفلبين هي التغالوغ التي تصحبها على الدوام اللغة الإنكليزية التي يتحدثها معظم الشعب الفلبيني بيسر إن لم نقل بطلاقة ، حتى بات من المألوف أن تجد جمعاً من الفلبينيين وقد أداروا حوارهم المشترك باللغة الإنكليزية ..

وبعيدا عن الصورة المُفزعة التي حاول صديقي الفلبيني أن يرسمها عن فئة من المعتاشين على هفوات الأجانب الأمنية ، فإن الشعب الفلبيني إعتاد أن يجد نفسه على مسرح الحياة بقدرته على الصبر وعلى التكيف.. ولهذا فإن الحديث عن الناتج الإجمالي للفلبين يعني بالضرورة الحديث عن الموارد الأساسية التي تشكل الدخل القومي للفلبين وهي الموارد الزراعية وكذلك السياحة اللتان تمثلان النسبة الأقل في هذا الدخل ، إذا ما قورنتا بالموارد الأساسية وهي تحويلات الفلبينيين العاملين خارج البلاد والذين يشكلون الركيزة الأساسية التي يقوم عليها اقتصادهم ..

وقد دهشت حقا حين علمت أن المورد الآخر الذي يبدو غريبا للوهلة الأولى لدى الملتقي فيتمثل في الإيرادات الناشئة عن إنتاج الآلاف من البرامج والأشرطة الكارتونية لحساب المئات من القنوات الأرضية والفضائية في العالم ، حتى أن الشركات الأمريكية الشهيرة التي تدّعي أنها تصنع أفلام الرسوم المتحركة ، ليست في الواقع سوى واجهة للصناع الحقيقيين في الفلبين!!



أفلام الرسوم المتحركة أحد أهم عناصر الدخل القومي في الفلبين



جربت الخوض في تفصيلات السيارة الفلبينية العجيبة .. جيبني

لكن كيف وصلت الفلبين إلى هذه المكانة في هذا الميدان غير المتاح حتى لأكثر الشركات صيتا وتقنية في هوليوود وطوكيو وغيرهما؟!

السّر يكمن في امتلاك الفلبين عدداً لا حصر له من أشد الرسامين براعة ، والذين يتخصصون في إنتاج الأفلام الكرتونية للأطفال وحتى الكبار ..

والفلبين أشبه بالبانوراما الشاسعة التي تنطوي على ألوان وأطياف ومستويات معيشية متباينة .. فإذا كان هنالك من يعيش كفافه ويتدثر البيوت الصغيرة المتهالكة التي لا تستوعب كل متطلباته ، فإن العاصمة مانيلا تعجّ بالشوارع التجارية التي تدنو من المستويات العالمية الباذخة في عمرانها وفي تصميمها ، لعل أهمها منطقة مأكاتي التي تستوعب البنوك الكبرى والشركات الشهيرة ، بالإضافة إلى المتاجر والمكاتب التي اعتادت احتضان النشاط التجاري العالمي الذي يتخذ من الفلبين موقعاً ، لهذا تحظى هذه المنطقة بالنصيب الأوفر من الإجراءات الأمنية ، خشية غارات متناوبة يقوم بها اللصوص الكبار!

* * *

أما الخروج عن إطار العاصمة مانيلا ، فيعني العيش في أجواء طبيعية مثالية يحيطها الماء وتتوسطها الخضرة ، ويقال إن الفلبين تسعى بكل ما لديها إلى استثمار كل ما وهبته الطبيعة إياها من مواقع طبيعية ساحرة لعل بينها تلك المنطقة التي يتوسطها البركان الشهير (تآل) والذي يثور في كل حزمة من العقود .. وقد كانت لي مغامرة محمودة العواقب بستر الله حين دُعيت إلى وجبة غداء على (ظهر) البركان الراكد حتى أجل يعلمه الله وحده!

وقد حرص المرافقون لنا على تطميننا بأن البركان لم يتململ بعد .. لم تتسلل بعد الغازات والأبخرة التي تمثل - في العادة - النذر والمقدمات لثورة البراكين طبقاً لما يرصده المتخصصون ، فقد كانت المرة الأخيرة التي ثار فيها (تآل) عام 2001 ، والتقديرات الجيولوجية تشير إلى أنه قد يثور مطلع الثلاثينيات من هذا القرن .. فلا خوف أبداً!

لكن النظر إلى التضاريس الخاملة التي خلفها البركان في آخر ثورة له ، تثير مشاعر الفرع الإنساني ومعه الإجلال والتسليم التام بقدرة الباري عزّ وجل ، حتى أن صورة الأخاديد والشرابين والحفر الواسعة بالمجمل لم تغادر ذاكرتي حتى فترة بعيدة

أعقت الرجوع من الفلبين!

والعراق بالنسبة لدولة مثل الفلبين تتجسد في هذا الرقي المشهود للفنون فيها من مسارح وقنوات تلفزيونية ، بالإضافة إلى هذه المسحة المزدوجة العربية — الإسبانية الطاغية على الموسيقى التي يعزفها الفلبينيون في مناسباتهم الكبرى .. هنا لا يتورع الشباب عن الاعتراف بأن موسيقى الجنوب ورقصاته هي المفضلة في المناسبات السعيدة ، وهذا الاعتراف يشير إلى مصداقية عالية حين نجد أفراد الفرقة الفنية وقد ارتدوا الزي العربي القديم ، وهم يؤدون عروضهم وفق سيناريو تغلب عليه الطابع العربية أو الإسلامية .. فالسيناريو يتحدث غالباً عن المحب القادم من غرب الفلبين حاملاً خصوصيته العربية التي تجد القبول والاستحسان لدى عامة الناس ..

والعاصمة مانيلا .. مدينة الفن بامتياز .. استطيع القول إن قليلاً جداً من المدن الآسيوية تضاهيها على هذا الصعيد ، إذ تنتشر النصب والتماثيل

التاريخية الشهيرة في مراكزها أو مواقعها المهمة ، في دليل على الولوج بالتأريخ الحي لهذا الشعب الذي أنجب أبطالاً كتبوا تأريخه ومنهم القائد ريزال الذي يجاور تمثاله المميز ذلك الساحل الذي يكسب مانيلا سحراً عجباً ..

قال لي السائق الذي كان معنا وقد سرح بعيداً في هذا البحر الممتد الذي يتموج أمامه : أي شخص في الفلبين يجد في نفسه قصوراً في واجب الضيافة



عاب متن البركان كانت دعوة الغداء!

إذا لم يأخذك إلى هذا الساحل خلال الدقائق التي تغيب فيها الشمس لترسم بذلك لوحة خلاصة يمتزج فيها اللونان الذهبي والفضي ، بينما تمخر السفن والمراكب الأخرى عباب البحر في تجسيد للنشاط المتصاعد لحركة التجارة من الفلبين وإليها ..

* * *

والفلبين نموذج للبلد الذي يتكيف مع الصعاب . والزائر لأية مدينة هناك تأخذ الدهشة حين يتخيل هذه العربة الفريدة التي لا نظير في العالم لشكلها أو ملامحها والتي تتكفل بنقل ملايين الناس في نسق عجيب ..

العربة اسمها (جيبني) ، ويلفظ الاسم في بعض المناطق (ديبني) وأهم ما فيها أنها عبارة عن (تجميع) فريد لأجزاء مختلفة من أنواع السيارات العالمية الشهيرة الأخرى!

فالمحرك من سيارة مرسيدس .. وبعض الأجزاء الميكانيكية من سيارة شوفرليت ، وكذلك الأوسن .. وقد بدأت الفلبين إنتاج

هذه السيارة رسميا عام 1946 مستفيدة من مخلفات الحرب العالمية الثانية ، حيث تُركت المئات من سيارات الجيب العسكرية الأمريكية ، فلم يتوان المهندسون البارعون هناك في انتهاز الفرصة لبناء الطراز الخاص بهم بالاستناد على محرك قديم لأية ماركة معروفة من السيارات العالمية وخصوصا المرسيديس ، ثم تأتي بقية الأجزاء حسبما يتوفر من سيارات أخرى! والعمل المهم الذي تقوم به المصانع المحلية هنا أنها تستكمل شكل السيارة بتصميم هيكل لها كي تكون واسطة النقل العام والتي تستوعب أكبر عدد من الناس .. إنها في عبارة واحدة (سيارة دگ النجف) ، وهي الجزء الحيوي الرائع من الثقافة الفلبينية ، إذ يتميز شكلها الخارجي بالألوان المبهجة الفاقعة الصارخة التي تكتظ بالناس على مدار الساعة! وإذا أدركنا أن في شوارع الفلبين عشرات الألوف من سيارات (جيبني) تأملنا ذلك المستوى الاحترافي الذي بلغته صناعة هياكل السيارات يدويا بحيث تلبي معظم الحاجة المحلية على هذا الصعيد ..

* * *

الفلبين .. سحر إنساني تكتبه الطبيعة ، وتزيّنه حلاوة الطباخ ، والإقبال على الحياة!!



لابد من القبة التقليدية لاتقاء شمس مانيل الحارقة

وقع يوكو موتو في المحظور .. وتأخر خمس دقائق !!



الإنسانية العالية تتوهج في ظل
تطور مستمر للمجتمع الياباني

في الرحلة إلى اليابان ، حرصت على أن أضع كتاب أنيس منصور (أنت في اليابان) عند الجيب الخارجي من حقيبة اليد الصغيرة ، لكي يكون الكتاب مُستنفراً جاهزاً في أية لحظة ، فقد كان هاجسي أن أرى الفرق بين ما أقرأ بعيني وما يمكن أن توصله الحروف إلى مداركي ، وبين ما أرى بأُم العين!
ومن أروع السطور التي توقفت عندها ما يقوله الكاتب الكبير بالنص :
(في اليابان ، إذا قال لك أحد ، أي أحد ، إنه سوف يجيء إليك في الساعة العاشرة فمن المؤكد أنه سوف يجيء بالثانية .. وإذا فتحت بابك قبل العاشرة بدقة ، فستجده واقفاً ، ولكنه لن يدق الباب إلا في العاشرة.

هذا سلوك كل الناس ابتداءً من الجرسون حتى الوزير ورئيس الوزراء والطبيب والحلاق والعشماوي أي الجلاد الذي ينفذ حكم الإعدام .. ويقال إن جلادا جاء متأخرا عن مواعده دقيقتين ، فتظلم المحكوم عليه أمام القضاء لأن الجلاد قد تركه يتعذب دقيقتين متجاوزا بذلك حكم القضاء ، فما كان من قاضي الاستئناف إلا أن قرر تحويل الحكم إلى سجن مخصص منه دقيقتان!!

* * *

وصف فيه براعة الكاتب ، وتحضر فيه الروح المصرية التي تمتزج فيها الدعابة بالحقيقة ، وقد كنت في منتهى الفضول لأن اتأكد بنفسي من هذا الانضباط الذي يتحلّى به أي ياباني .. لقد قالت لي المترجمة التي رافقت وفدنا منذ اللحظة الأولى لوصول وفد منتخب العراق إلى مدينة يوكوهاما : هنالك خطأ في المثل الذي يقول إن الالتزام بالموعد من أخلاق الملوك .. والصحيح أن تقول إنه من أخلاق أهل اليابان!

وابتسمت كثيرا لهذا القول ، وكان واضحا أنني كنت أشكك في هذا الانضباط ، فللحياة ظروفها ومستجداتها وطوارئها ، ولا يمكن أن يستقيم الأمر في كل مرة .. ولهذا كنت أطيل النظر إلى ساعتي كأنني ميقاتي في سباق الجري لمسافة قصيرة على الطريقة القديمة .. أبرم الاتفاق على موعد مع صحفي أو إداري ياباني ، ثم أقول لنفسني : لننظر ما الذي سيجري!! خلال ثمانية أيام بكل تفاصيلها لم أجد يابانيا يخلف موعدا ، حتى جاء اليوم الأخير الذي حدث فيه ما يمكن أن يقال إنه المستحيل ، وتأخر الصحفي يوكو موتو عن المجيء إلى الفندق .. الفندق الذي كنا نقيم فيه يقع في إحدى ضواحي المدينة مجاورا للمطار ، وقد اضطر يوكو موتو إلى التأخر خمس دقائق كاملة!

يا إلهي .. إنه زمن طويل في عُرف اليابانيين .. كيف يستخفّ هذا الفرد الياباني بتقليد حرص أجداده من سالف الزمان على صيانتهم من فوضى أو دنس التأخير؟!



طابور موظفي الفندق في وداعنا

كنت اتساءل مازحا ، وقد حاولت أن أوقع الصحفي الياباني في الحرج لأعرف ما الذي يمكن أن يفعله وكيف يتصرف! الرجل دخل الفندق راكضا لاهثا تتقطع أنفاسه .. ولم يكد يصل إلي في الصالة الرئيسية وأنا منهمك في الترتيب لشيء ما مع شرار حيدر وأكرم سلمان والدكتور جمال صالح ، من باب المزاح .. حتى انهال علينا بانحناءات وانثناءات واعتذارات ، ثم راح يبرّر لي الموقف في منتهى التوجع .. نعم كان - في حقيقة الامر - يتوجع أيضا ، ولا يعتذر فحسب: - لقد استطعت في البداية تأمين أربع من الصحف اليومية الخمس التي طلبتها والتي كتبت عن مباراة يوم أمس بين العراق واليابان ، وكان عليّ أن أدور في الشارع الرئيسي للمدينة كي أؤمن لك الصحيفة الخامسة ، وأخيرا عثرت عليها .. أنا اعتبره سلوكا غير مهذب ألا أحيئك بالصحف كلها!!

عند هذه الجملة ، تخلّيت تماما عن محاولتي - بالمزاح - إيقاع الصحفي الياباني في حرج التأخير عن الموعد ، وأسّـرعت



اللون الأزرق أو التروكوازيتجلب في الإشارة الضوئية اليابانية بدلا من الأخضر

ومددت يدي إليه مُسلما ومثمنا جهوده ، وشعرت بالخجل الشديد أمام هذا الأدب الشديد .. ترى كم مرة في حياتي خرقت مثل هذا السياق وتأخرت عن مواعيدي أو تجاهلته تماما؟! *

في ظل هذا الانضباط في الحياة والتي لا يمكن أن تستقيم من دونه في عرف اليابانيين، وليس في أعراف شعوب غيرهم .. وجدت عند إحدى الإشارات المرورية عند تقاطع شهير ، ما اعتبرته خطأ فادحا! كان فرحي باكتشاف الخطأ بالغا .. هل تتخيل التلميذ الذي يتربص بأستاذه كي يلتقط له خطأ في هذا الموضع أو ذاك؟ هذه كانت بالضبط مشاعري!

لقد لاحظت أن ألوان الإشارة الضوئية هي الأحمر للتوقف ، والأصفر للتحفز قبل الانطلاق ، واللون الأزرق المائل إلى

الفيروزي (التركواز) للسير ، وليس اللون الأخضر!

فركت يديّ الاثنتين تعبيراً عن (منجز) يتحقق الآن ، وقد تساءلت في دخيلة نفسي : هل أخطأ المهندس المسؤول عن تركيب الإشارات الضوئية في عمله ؟ هل أخطأ العمال في مد الأسلاك وفي التنصيب فوضعوا لون التركواز الأقرب إلى الأزرق؟ هل يتم في هذه اللحظة كسر القواعد المرورية ؟ هل بات الأمر لا قيمة له ولم يتم التحسب له بشكل كامل؟! والآن خذ الجواب مني ، ومعه خيبة أملي فيما اكتشفت أو تشاطرت فيه:

إنها الثقافة اليابانية . فعلى مدى عهود طويلة لم تكن هذه الثقافة مهتمة باللون الأخضر ، فهو يعني بالنتيجة اللون الأزرق (أو) باللغة اليابانية التي لا تتضمن في الأصل التاريخي سوى أربعة ألوان تقليدية ، إذ يضاف إلى اللونين السابقين الأسود والأبيض!

القادم من وراء الحدود يلمس هذا الاختلاف ويثيره ، وإذا وجه سؤاله إلى أي من اليابانيين فسيقول له الأخير : ما تراه



علي رباح مع جمال صالح مع أكرم سلمان في ديار اليابان

صحيح ، وليس وهما .. اللون الأزرق عندنا مختلط باللون الأخضر ، وهذا أمر منصوص عليه حتى في القوانين العامة وقبلها في المسميات اللغوية ، حتى أن مثل هذا التطبيق يخالف معاهدة مرورية دولية تمّ التوقيع عليها في فيينا من قبل أربع وسبعين دولة!

يتغلب هنا منطق الموروث الثقافي لدى اليابانيين حتى على لغة الإشارات الضوئية العالمية ، والامر ليس صعب الفهم لدى الاجنبي الذي زار اليابان من قبل!

وقد أدهشني أحد الصحفيين حين سألته عن أصل الألوان ومسمياتها في اللغة اليابانية حين قال : لقد بات اللون الأخضر الصريح يُشير في لغتنا إلى أي شيء جديد أو لم يتم اختباره أو تجربته!

* * *

واليابان لا تخرج عن دائرة المجتمعات الآسيوية التي تمتاز فيها القيمة الروحية مع الامتثال للعلم وللمقتضيات العلم

ولصحات العلم .. فهي دولة لها واجهة الرقي العلمي المذهل الذي لم تعرف له البشرية نظيراً.. لكنها في الوقت عينه مساحة مفتوحة على قيم وأديان وحضارات وتقاليد تحت على التواضع ، وتدعو إلى مدّ كل الجسور الممكنة بالإنسان والإنسانية كلما كان ذلك ممكناً أو متاحاً..

كل قيمة في المجتمع الياباني تدعو إلى الإعتراف بالأجنبي أو الغريب وإظهار كل صنوف الادب في التعامل معه .. لا داعي للضيعة .. والحد لا يورث إلا الندم ، ولكي تسير قافلة الحياة لابدّ أن يكون لدى بني البشر تضامن شعوري في التعامل يصل إلى الأنفس ، حتى مع الاحتفاظ بالهوية وتغليب المصالح الوطنية ، وهذا حق لا خلاف عليه في كل زمن أو مكان! ولهذا يشعر الزائر إلى اليابان بألفة البشر قبل المكان حين تطالعه العيون الضيقة بترحيبها الواسع ، وهذا هو الانطباع الأول الذي ترسمه اليابان في عقل ضيفها أو زائرها ..

لكن هذه التلقائية المرححة التي تتغنى بالحياة ، تقبع خلفها صرامة شديدة تُمسك بزمام المجتمع الياباني القائم على احترام المثل والقيم والتقاليد ، داخل الأسرة ومحيطها الاجتماعي تحديداً..

ثم لا تملك إلا أن تجد نفسك في خاتمة المطاف وقد أزحت الستار عن هذا المجتمع الدؤوب ، فقط عندما تدرك أن كل شيء له حسابه ، فالثانية من الزمن لها بُعدها الشاسع ، ولولا هذا وذاك ما أصبحت اليابان القوة الباذخة التي



حملوا معهم الكرة وجاءوا يطلبون توقيعهم



(شكرا جزيلًا) .. كتبها اليابانيون بلغتنا في يوم الوداع

تقود البشرية على الدوام إلى فتوح العلم والتكنولوجيا ..

واليابان في وصفها على الخريطة البشرية ، دولة من دول شرق قارة آسيا .. والاسم هذا له مدلولاته اللفظية والمعنوية في اللغة الدارجة .. فاليابان تعني منبع الشمس ، وقد أطلق الصينيون هذا الإسم على هذه المملكة قبل آلاف السنين ، وتُلفظ اليابان كذلك (نيبون) و(نيهون) ، وشعبها جزء ممن يطلق عليهم الجنس الأصفر، لأنهم يتميزون بعدة صفات شكلية تجمعهم من حيث العين الضيقة وقصر القامة والشعر الناعم ولون البشرة المائل للصفرة، وهم يُعدّون من أقرب الشعوب للمسلمين والعرب من حيث العادات والتقاليد وتقدير العاطفة والروح، إلا أن معظمهم ينبنون المعتقدات التي تعتمد على اجتهادات وتعاليم بشرية أكثر منها ديانات سماوية ، كما أنهم يقدّرون العادات والتقاليد والتأريخ والأسرة التي تحظى بكل اهتمام وتقدير واحترام ، مثلهم في ذلك مثل أغلب الشرقيين..

ويتبع الياباني تعاليم المعتقدات بصدق ، وأكثر الديانات أتباعا هي (الشتنوية) تليها البوذية ثم المسيحية ، ويكفل الدستور الياباني حرية الأديان، ولا يوجد دين رسمي للدولة، واللافت أن الياباني لا يكتب شيئاً في خانة الدين، باعتبار أن (الشتنوية) ما هي إلا عادات اجتماعية يابانية متوارثة ، والبوذية تعتبر فلسفة أكثر منها دينا من وجهة نظر الكثير من اليابانيين.

والياباني يأخذ أمور الدين ببساطة ، إذ يزور معبد الشنتو ومعبد البوذية، وقد يزور الكنيسة ، ومن معتقداتهم اعتبارهم أن الحياة والموت تطور منطقي ولا بد منه في إطار ما يجري للطبيعة ..

* * *

وأول ما يُلَفُتُ نظر الزائر الذي تحط قدماه أرض اليابان ، الأدب الجم الذي يتمتع به أبناء هذا البلد ، والخلق الرفيع الذي يلمسه كل من يتعامل معهم . والمعروف عن الياباني، أنه لم يعتد المصافحة باليد عند التلاقي ، وإمّا



متحف الكرة اليابانية .. ذاكرة تحفظ للأجيال كل الذكريات

يحنى قامته نحو الأمام بهدوء ودماثة .. وعندما يرغب في تأكيد احترامه وعمق محبته ، فإنه يكرر انحناءه أكثر من مرة وهو يتنسم..

والياباني تمكن من نقل ما لدى الغرب من علوم مختلفة ونجح في تقليدها وتطبيقها ، بل ومن ثم أبدع في تطويرها إلى الأحسن ، لهذا يجد الياباني أن الراحة الطويلة والإخلاد إلى النوم لساعات طوال مضيعة للوقت .. إنه يكتفي بما معدله سبع ساعات من أصل أربع وعشرين ساعة ، وهذا المعدل صار أشبه بالنظام المتفق عليه من دون وضعه في قانون حكومي صارم!

فالنوم - في الثقافة المجتمعية اليابانية - حاجة تتحول إلى سلوك يدل على الإهمال ، لذلك تجد الياباني في غاية النشاط وقت عمله ، وتجد أن إجازته السنوية شبه معدومة ، بالإضافة إلى عدم وجود سن للتقاعد بالنسبة له ، كما أن الياباني يجيد الادخار ، فالشعب يدّخر من عشرين إلى أربعين بالمائة من دخله ..

والغذاء الأساسي في اليابان هو الأرز ويتم تناوله في الوجبات الثلاث ، ويكون مسلوقاً ويؤكل مع بعض قطع السمك النيئ والقليل من الخضار المخللة، وهذه تعد وجبة كاملة.

كما أن من أبرز معالم الغذاء على المائدة اليابانية أكلة (التمبرورا) التي تعكس عشق اليابانيين إلى الشكل المنمق للطعام قبل كل شيء ..

واليابانيون يتذوقون الشاي باستمتاع ، بل يعشقونه، فهو سميهم ورفيقهم في كل جلسة أو عزومة ، حتى بات من المعقول أن تجد لدى اليابانيين من يمتن تعليم صناعة الشاي للآخرين ..

* * *

هل حدث وأن دفعت بك المقادير إلى تجريب أو اختبار الإنسانية المفرطة لدى اليابانيين!!؟
 في الذهن صورة أضعها في أعز مكان في النفس والقلب .. صورة تتضاءل أمامها الكلمات والأوصاف والمشاعر .. خرج
 كل العاملين في فندق الانتركونتيننتال في اليابان مودعين ومُلوحين بأحلى العبارات التي كتبوها باللغة العربية وذلك في
 وداع وفد منتخبنا الكروي الذي كان يقيم في الفندق وأجرى مباراة دولية ودية مع نظيره الياباني في مدينة يوكوهاما!
 خرج مدير الفندق وموظفو الاستقبال والإداريون والمحاسبون وعمال الخدمة والطباخون ليصطفوا في صالة الاستقبال
 في نسق منظم يلفت الانتباه!
 قلت لمن حولي من اللاعبين والإداريين : لا شك أنه يوم وطني أو عيد له رمزية تاريخية أو اجتماعية لدى اليابانيين ،
 وإلا فما السر الذي يجعل كل هؤلاء يتكون أشغالهم ليقفوا في مشهد لا يتلاءم مع طبيعة ووظيفة كل منهم ، فنادر
 جدا أن تجد الياباني وقد استخف بساعات عمله أو حاول (التملص) منها؟!
 لم يمهلي الجميع فرصة الخوض في الاحتمالات والتكهنات ، فقد اندفع أهل الفندق في طابور فيه القدر العالي من
 الانضباط ، وراحوا يسلمون علينا واحدا واحدا .. رأيت بعضهم وقد كتم مشاعره ، وغالب دموعه ثم غلبته فنزلت من
 المآقي وغمرت الخدود الندية!
 يا الهي .. ما كل هذا الخلق؟ شعب لا يقدر نبياً حراً الإفراط ، ولا ينتمي في أغلبه إلى دين ، ومع هذا كان يعاملنا على
 مدار ثمانية أيام وكأنه من طينة مسلمينا الأفاذا الأوائل!
 صورة استعيدها كأكثر الصور حضوراً في ذهني وفي قلبي ، وبعدها تنثال عشرات الاسئلة عما يجعل اليابان وشعب
 اليابان في الطليعة رقيًا وتقدماً وإنسانية .. ولا عزاء لنا أبداً!



يوكوهاما.. مدينة صناعية بامتياز تتألف فيها كرة القدم!



منتخب العراق في اليابان .. بلد السماحة الإنسانية

تايلاند



الإبهار في كل مكان .. لاتنس أنك في تايلاند

المياه الآسنة .. لتطهير النفس البشرية !!

هطلت الأمطار بغزارة في العاصمة تايلاند . ولا غرابة في المشهد الذي كانت تقلّبات المناخ ترسمه أمامي وأنا أطيل النظر من نافذة الفندق الشاهق إلى ما تعصره السماء على وجه الأرض!

لكنني وحين أدت رأسي إلى الأسفل لأرى كيف تسير الحياة على الأرض في ظل هذه السيول الكثيفة ، اكتشفت أن الناس في غاية المرح .. نساء ورجال ، صغار وشيوخ يطلقون الضحكات العالية وهم يجرون في كل مساحة متاحة من الشارع العريض الذي يُطل عليه فندق توين تاور حيث كنت أقيم .. ولا غرابة في الأمر أيضا .. هكذا قلتها لنفسي ، فالمطر مصدر السعادة حيثما تساقط .. ألا يكفي أنه يبعث الأمل في الحياة ، ويجدد دورة التربة ، ويمنح البشر نضارة ، ويهب خضارا وألقا للطبيعة؟!

وجدت نفسي على الفور مهتما في أن أشارك الناس فرحتهم بالمطر الذي لا ينقطع ولا تنتهي فصوله على مدار السنة في تايلاند ، فأسرعت في النزول وغادرت الفندق لكي ألقى بنفسي وسط كل مظاهر الفرح ، فماذا اكتشفت؟!

كانت الأيدي ترتفع إلى فوق كأنها تستدعي السماء لأن تجود بالمزيد من المطر ، ولكن الأقدام كانت تخوض في مياه سوداء اندلعت من فوهات الصرف الصحي المنتشرة على جانبي الطريق!

الكثير من أهل الفرخ هنا نزعوا أحذيتهم وحملوها بأيديهم ، وتركوا لأقدامهم العارية أن تعبت بمياه المطر والتي امتزجت بمياه الصرف الصحي بكل ما كانت تحمله من مخلفات حياتية أو بشرية!

اقتربت من الشاب الراقص أمامي في قلب الشارع وقلت : المطر يبعث على السعادة .. هل هكذا تعبرون عن الفرخ بقدوم المطر؟!

- أكيد .. كيف للحياة أن تستمر من دون المطر.

* ولكن ، هل بهذه - وأشرت بيدي إلى أسفل - بمياه الأمطار والمخلفات سوداء اللون؟!

- إنها كذلك ، وقد امتزجت بالمياه التي تطهر النفس!

* تعني مياه الصرف الصحي؟!

- أكيد .. نحن الآن نتخلى عن غرورنا الدنيوي!

* بالخوض في مياه المخلفات؟!

- هذه مياه نحن ننتجها ، وهي بالنتيجة تعود إلينا..

* والأمراض والأوبئة .. ألم تتحسبوا لما يمكن أن تتعرضوا له؟

- المرض أو العارض الصحي قابل للشفاء .. الأدوية والعقاقير تتكفل بهذا ، أما خطايانا وآثامنا فهي كثيرة وكبيرة ولا بد أن نتذكر دوما أننا لسنا دوما أنقياء مثل ماء المطر ، وإنما نحمل الكوارث إلى بعضنا البعض حين ننسى أن مصيرنا العودة إلى التربة وقد تحللت أجسادنا وباتت رائحتها لا تطاق!



السعادة في كل مكان .. وعلى كل الوجوه



الضحكات صافية تلبس من القلب برغم كل قسوة الحياة

* * *

كان المشهد عاصفا كاد يقلب كياني ، وكان حديث الشاب التايلاندي مؤثرا للغاية .. في هذه البلاد ديانات وأفكار ومذاهب وتقاليده وتقاليع شتى .. لكل منها أتباع ومريدون ومؤمنون ، والذي لفت انتباهي خلال خمس زيارات إلى تايلاند أن هذه الخطوط الدينية أو اللادينية التي تجتذب الناس هناك تختلف في كثير من التفاصيل ، لكنها تجتمع تماما عند قاسم مشترك بارز : عشق السلام ونبذ العنف ورفع ميزة التسامح على كل ميزة .. ومن هنا تأتي سعادة الناس والتي ينبغي أن تصيهم بالعدوى .. عدوى السعادة!

لم تصنف تايلاند بين الدول المتقدمة على خارطة السعادة على وجه المعمورة من فراغ ، بل إنها تأتي من ذلك الانطباع الذي يتشكل لدى زائري هذا البلد بمجرد الدخول إليه وملامسة طباع أهله وعاداتهم التي تحت على رسم الابتسامة في كل وقت ، فلا تبدو من الناس غير ضحكاتهم النابعة من قلوبهم ..

ولهذا قيل إن تايلاند مملكة تتجسد فيها ديبلوماسية الابتسام حتى لو جاءت على قاعدة من الضيق أو الضنك أو حتى الفقر في هذه المقاطعة أو تلك من البلد.. الشعب هناك يحارب فقره بالضحكات المتواصلة التي يضغط فيها على قهر الحرمان ويدوس على وجع العوز ، ونادرا ما تجد تايلانديا وقد علت وجهه علامات العبوس .. الكل يضحك ، وهكذا يجب أن تمضي الحياة!

في الاستطلاعات العالمية السنوية ، يكتسح الشعب التايلاندي كل الأرقام المتعلقة بالسعادة .. مدير الفندق الذي أقيم فيه لاحظ أمارات العجب على وجهي وأنا أعود من (حفلة المطر) في الشارع ، فمدّ يده وسحبني إلى زاوية في الصالة الفسيحة ليقول لي : أعجب ما يمكن أن تشاهده هنا أن الشعب لا يجد ما يسد رمقه ، ولكنه يتمتع بواجهة مضيئة حقيقية من السعادة يرصدها الزائر إلى هنا .. والسر ينبع من التعاليم الدينية أو الفكرية التي يستجيب لها المثقف



أديان ومذاهب وتقاليده تلتئم عن السلام والتسامح

وغير المتعلم!

* * *

وقد اشتهرت مملكة تايلاند قبل إسمها هذا بـ (سيام) وقد كان الاسم الرسمي لهذا البلد حتى عام تسعة وأربعين وتسعمائة وألف، حين حملت البلاد هويتها الحالية وهي تايلاند وهي في الواقع عبارة مركبة من كلمتين ، الأولى (تاي) وتعني الحر في اللغة الشعبية و(لاند) وتعني الأرض ، وبهذا تكون تايلاند إشارة إلى الأرض الحرة أو الشعب الحر.. وتمتد الجذور التايلاندية آلافاً من السنين في أرض الحضارات الإنسانية المختلفة التي تزوجت وامتدت وأثرت وتأثرت ، كما أن هذه الأرض الثرية بالكثير من الثروات الطبيعية والزراعية كانت محط حملات واحتلالات متناوبة ومستمرة ، أدت إلى تلاقح في الثقافات والأفكار وهو ما يظهر جلياً في أسلوب الحياة التايلاندية والأسلوب المتحضر في التعامل مع الزائر أو الضيف القادم من وراء الحدود ..

* * *

كثير من اللا مألوف تجده في بلد السعادة .. أنت هنا تشعر غالباً بالدهشة لأن تجد مفردة (استثناء) وهي تهيمن على المشهد الحياتي واهتمامات الناس ، دوناً عن باقي الخلق! وإذا كان للناس في ما يعشقون مذاهب ، فان الشعب التايلاندي نموذج استثنائي ، وفقاً لكل المقاييس ، بعشقه المبرح

لرياضتين لا ثالث لهما في العقول والقلوب والاهتمامات .. التاي بوكسنغ ، والسيك تايكرو .. وللثانية قصص ومنعطفات وذكريات يطيب لكل تايلاندي أن يصفها وكأنه يلقي قصيدة من الشعر .. كيف لا وقد ارتبطت السيكا تايكرو بتايلاند البلد والشعب والحضارة منذ أزمنة غابرة ، حتى أنك حين تسمع هنا عن روني وميسي ورونالدو وديلييرو وهم يلعبون ويتألقون في تايلاند ، فإن القصد هو وجود نجوم محليين أفذاذ هنا في السيكا تايكرو يفوقون أبطال الكرة شهرة ومكانة .. في قلوب التايلانديين طبعاً!!

النظرة الأولى إلى الملعب الذي تقام فيه مباريات السيكا تايكرو تعطي الانطباع بأن أبعاد الملعب وارتفاع الشبكة وحجمها مطابقة تماماً للمواصفات المعتمدة في رياضة الريشة الطائرة أو البادمينتون مع ملاحظة بعض الضوابط الصارمة التي تنص أولاً على عدم استخدام اليد بشكل مطلق ، كما أن على كل لاعب أن يمس الكرة لمرة واحدة قبل أن يتم تسديدها من فوق الشبكة إلى النصف العائد للفريق الخصم ..

وليس هنالك أي تعاقب أو تدوير في أماكن اللاعبين في المنطقة الدفاعية ، كما يتم احتساب النقطة حتى عندما تمس الكرة الشبكة وهي في طريقها إلى أي من جانبي الملعب ..

وعلى غرار الكثير من الألعاب التي تمارس في أماكن مختلفة ، فإن مباريات السيكا تايكرو تقام في الملاعب المفتوحة وكذلك في الصالات المغطاة ، لكن أغلب البطولات لا تقام إلا في الأجواء المفتوحة حيث تتاح للعدد الأكبر من



أمام أحد المعابد البوذية .. روعة التصميم تجذب الزائر

المتفرجين مشاهدة هذه المباريات ..

ويقول خبراء اللعبة أن أهم ما يميز اللعبة في البلدان الجديدة التي تدخلها أن الناس وهي تأتي لمشاهدة المباراة لا تعرف الكثير عن أحكام أو ضوابط هذه الرياضة ..

وهناك ثلاثة أشكال للفريق الذي يخوض مباريات السيباك تاكرو وهي الأنواع الرئيسة المعتمدة من قبل الاتحادين الدولي والآسيوي للعبة .. فهناك النوع الذي تطلق عليه كلمة (ريغو) التي تعني أن المباراة تقام بين فريقين يتألف كل منهما من ثلاثة لاعبين..

ثم النوع الثاني من المباريات وهو (الفرقي) الذي يقام بين جانبين يتكون كل منهما من (ثلاثة ريغو) أي ستة لاعبين أساسيين وثلاثة لاعبين احتياط ..

أما النوع الثالث من مباريات السيباك تاكرو ، فهو (الزوجي) أي أن المباراة تقام بين فريقين يتألف كل منهما من لاعبين اثنين ..

ويجري الإرسال في السيباك تاكرو من قبل أحد اللاعبين بحيث يضع ساقه في دائرة أو منطقة الإرسال ويركل الكرة من دائرة لا يزيد قطرها عن مائة وثمانين سنتيمتراً ..

وحين تنطلق المباراة بواحد من الإرسالات فإنه يسمح للاعبين الفريق المقابل أن يلمسوها من مرة واحدة إلى ثلاث مرات



تحية خاصة للمبتهجين في مهرجان المطر العجيب



مرح التايلانديين وسط المياه الآسنة .. إنه تطهير النفس!!

وهنا يتم استخدام الرأس والظهر والساق وأجزاء كثيرة من الجسم ..

أما الأعضاء التي يحظر استخدامها في التعامل مع الكرة في الذراع ابتداء من نهاية الكتف وحتى أطراف أصابع اليد .. وهناك نوعان من الكرات التي يمكن استخدامها في إقامة المباريات .. النوع الأول من الكرات تجري صناعته على نحو جدائي متشابه بانتظام من نبات (الروطان) الذي تشتهر بزراعته دول شبه القارة الهندية ومنه تتم صناعة السلال والعصي ، أما النوع الثاني فهو مصنوع من مواد بلاستيكية صلبة مشابهة لمادة الروطان ..

وفي البدء لم يكن مسموحاً للكرات الاصطناعية بالتغلغل في أوساط اللعبة ، لكن الاتحادات المعنية باللعبة في جنوب ووسط وشرقي آسيا قررت السماح بهذا النوع خلال السنوات الأخيرة وذلك بعد تعذر الحصول على النبات الأصلي في أماكن أخرى من العالم ..

وقد أحدث مهندس تايلاندي ثورة في تأريخ السيباك تاكرو حين اخترع الكرة البلاستيكية الانزلاقية الصلبة عام 1982 .. ويتراوح وزن الكرة من مائة وسبعين إلى مائة وتسعين غراماً ، أما محيط هذه الكرة فقياسه أربعون سنتيمتراً .. والكرة في السيباك تاكرو كما يقول خبراءها هي أقل شبهاً بكرة اليد وأكبر حجماً من كرة السوفت بول ..

وتحتسب نتائج مباريات السيباك تاكرو بالمجموعات ، والمعنى أن الفريق الذي يحصل على مجموعتين من أصل المجموعات الثلاث المقررة للمباراة هو الذي يحسم النتيجة لصالحه .. وتتضمن كل مجموعة خمس عشرة نقطة ..

ويُعد اللاعبون من طوال القامة النوع المفضل لدى مدربي السيباك تاكرو ، ذلك لأن الطول يساعد في إنجاز قفزات أعلى في الهواء يتمكن من خلالها اللاعب من تصويب الكرة بطريقة أكروبايكية ويرسلها إلى المكان الذي يشاء وهو المكان



الفنون الشعبية متاحة في الشوارع حيثما ذهبت

الذي غالباً ما يشكل صعوبة كبرى على الفريق المقابل .. ويقول الخبراء أن ما يصطلح عليه الاشتباكات أو الألعاب الجوية في السيباك تاكرو هو الجانب الأكثر إثارة في هذه الرياضة ، إذ قد تصل سرعة الكرة المسددة على الطائر مائة وأربعين كيلو متراً في الساعة ..

الصور المتداخلة لركل الكرة أو التصدي لها لا يعني بالمرّة أن اللاعبين إزاء رياضة سهلة .. فارتداد الكرة من أي من أجزاء الجسم يتطلب قدراً من الصلابة والمواجهة .. وفي إمكاننا أن نتخيل لاعباً يتصدى لكرة قوية وصلبة وسريعة كي يوقف تدفقها في الملعب برأسه وهو بذلك يماثل لاعب الكرة الطائرة في حائط الصد لكن المخاطر هنا - في السيباك تاكرو - قد تبدو جسيمة ..

كما أن المخاطر التي تحيط باللاعب تتجلى حين يرتقي في الهواء ويؤدي حركات لاعب الجمناز البار من أجل أن يسدد الكرة بأقصى قدر من الدقة والقوة ، وقد ترى جسمه بالفعل وقد تحول إلى ما يشبه الطائرة المروحية في هبوطها وارتقاها السريعين ..

ولهذا فإن النجاح في رياضة كالسيباك تاكرو لا يأتي عادة بسرعة .. وحتى الموهبة هنا لا تضمن وحدها النجاح السريع للاعب ، فهناك حتماً عنصر التطبع على صدمات وارتدادات الكرة ، أي أن عامل التدرج مطلوب هنا للتكيف مع أداء مختلف الحركات مع مرور الزمن ومع كثرة الوحدات التدريبية .. ولهذا السبب سمح الاتحاد الدولي للعبة باستخدام كرات أخف وزناً للاعبين المبتدئين أو الناشئين ..

السيباك تاكرو التي تجمع الركل بالأقدام مع أهم صور الكرة الطائرة ، واحدة من أكثر الألعاب الرياضية الشعبية انتشاراً في آسيا ، وهي في حسابات الكثير من دول وسط آسيا أو جنوبها أو شرقها ، من الألعاب التي تجتذب أعداداً خيالية من الجمهور ..

والانطباع الأول الذي ترسمه هذه الرياضة أنها بالضبط حاصل جمع بين ثلاث رياضات هي كرة القدم والكرة الطائرة والجمباز وتلعب على أرضية ملعب منافسات الزوجي في البادمينتون أو الريشة الطائرة حين يكون في أحد فعاليتها ثلاثة من اللاعبين متموضعين في النصف الخاص بهم وهم يتنافسون مع فريق مماثل في النصف الآخر وتفصل بين الاثنين شبكة يبلغ ارتفاعها خمسة أقدام ، ويملك كل فريق الفرصة في أن يتعامل مع الكرة عبر الضرب والركل بالقدم أو بالركبة أو بالكتف أو بالرأس من أجل أن يعيد الكرة إلى ملعب الفريق الخصم ..

أما توليفة هذه الرياضة ونشأتها الأولى فتعود إلى ما يزيد عن خمسمائة سنة حين ابتكرت العائلة المالكة في ماليزيا هذه الرياضة لتكون في البداية مجالا للتسلية اليومية للنخبة وليس لعامة الناس .. أما اسم اللعبة فقد جاء من لغتين ، فكلمة (سيباك) تعني في اللغة المالايوية (الركل بالقدم) .. أما كلمة (تاكرو) فتشير إلى معنى مرادف لها في اللغة التايلاندية



السيباك تاكرو .. أكبر من رياضة .. إنها التراث التايلاندي بأروع صورته

وهو (الكرة)..

* * *

- تذهب إلى السوق العائم؟!

كان السؤال خاطفاً ، وكانت إجابته عاجلة : يا ريت!

على بعد سبعين كيلومترا عن العاصمة بانكوك ، أخذتني خطواتي أنا والمرافق التايلاندي إلى واحدة من العلامات الفارقة في المشهد الحياتي اليومي .. إنه السوق المائي أو (الفلوتنغ ماركت) .. ويسمونه أيضا السوق المائي .. السوق الذي له حكاية تستحق أن تروى بالكثير من الوصف والإعجاب ..

فمن المعروف أن أغلب المدن في تايلاند أسست على ضفاف الأنهار ، وقد رأيت من قبل سوقين عائمين في فيتنام وإندونيسيا ، وكانت رغبتني شديدة في الذهاب إلى سوق (أمفاو) فهو الأكبر مساحة ، والأكثر تنوعا ، وهو الذي يحظى دون غيره من الأسواق العائمة بالنصيب الوافر من السواح الأجانب ..

وتعود فكرة الأسواق النهرية العائمة إلى الزمن الذي كانت القوارب فيه وسيلة التنقل الوحيدة بالنسبة للمسافات البعيدة ، قبل أن تتحول فيما بعد إلى وسيلة مربحة تجتذب السواح من كل صوب وحذب!



الانطلاق من وسط بانكوك نحو السوق العائم



النساء شطارة مميزة في التجارة وسط السوق العائم

إن السوق الكبير الذي ذهب إليه برفقة الصديق التايلاندي على متن دراجة بخارية ، صار واحدا من الطرق التي يستعيد بها التايلانديون حياتهم في الماضي .. هكذا يكيّف الإنسان حياته وأدواته في الحياة كي يتنقل في الزوارق الرفيعة الطويلة ، وكي يجعل منها سوقاً رائجة يسعى إليها كل من تطأ قدماه أرض تايلاند .. حياة مختلفة زاهية التنوع ، وأواصر تجارية على سطح الماء .. ألوان ، وبضائع ، وطعام من كل الأصناف الشعبية يجري

تحضيره على القوارب ويتناوله طلابه الزبائن التي تتأرجح على المياه كأنها تتراقص لروعة المشهد!
قال لي صديقي : هذا السوق يفتح في ثلاثة أيام فقط من الأسبوع .. الجمعة ، السبت والأحد ، وفي أوقات محددة تبدأ من الرابعة عصرا وحتى التاسعة مساءً .. لكن سكان هذه المنطقة يكسرون مثل هذه التوقيتات في المواسم التي تشهد فيها تايلاند توافد جموع السياح من كل مكان ، ففي كثير من الأيام يمكنك أن تأتي في التاسعة صباحا وتجد نشاطا كبيرا يحفل به السوق ، حتى لتكاد القوارب تصطدم ببعضها البعض من فرط الزحام!

وفي السوق المائي هذا تجري صفقات البيع والشراء ، كما تصل إليه أشهى الثمار المقطوفة من الغابات المجاورة .. مشهد يعيدك إلى معاملات تجارية بدائية كان الإنسان يلجأ إليها في سالف العصر والأوان ، لكن السوق يتحول اليوم إلى ملمح ولا أهم من ملامح السياحة في مملكة تايلاند .. خصوصا بعد أن زحفت على ضفافه بعض مطاعم الوجبات السريعة أو الخفيفة التي تلبي رغبة أو

حاجة الزائر الاجنبي الذي قد لا يستطعم صنوف الغذاء الشعبية التي يجري تحضيرها على القوارب أيضا!

قلت للبائعة العجوز حين اقترب قاربنا الطويل من قاربها المكتظ بالمحاصيل الاستوائية : هل أجد عندك غير الموز والتين الشوكي والأناناس والبابايا؟!

* كل شيء متاح هنا .. قل لي ما هي حاجتك؟

- رددت محاولا المزاح : هل أعثر على بعض الحيوانات؟!



برنامج وثائقي قمت بإنجازه عن السوق العائم

* قرد .. تريد قردا أو تمساحا .. أم فيلا صغيرا؟ ممكن .. انتظري هنا نصف ساعة لا أكثر وسأعود إليك بما تريد!!
إجابة غير متوقعة لم أرد عليها إلا بالنظر إلى صديقي بكثير من الاستغراب والدهشة .. هل ستفعلها هذه المرأة العجوز حقا؟! .. وقد مضت دقائق الانتظار عادت بعدها البائعة ومعها قارب ثان يقوده شاب اتضح على الفور أنه ابنها وقد تهلل وجهه بالبشر ، فهناك صفقة وشيكة ونقود أجنبية كثيرة في الطريق!

حاولت التملص من الموقف بأكمله ، وغمزت بطرف عيني إلى الصديق التايلاندي كي يتدخل بطريقته وأسبابه لينقذني بإبطال مفعول صفقة الشراء ، فجرى حوار باللغة التايلاندية اهتزت فيه الرؤوس كثيرا ثم ضحكت الشفاه عن رضا لا يمكن أن تخطئه العين .. انتهى الحوار بخطوة أخيرة مني وهي شراء بعض الفاكهة والدفع بسخاء ، كأنني بهذا أقدر للبائعة العجوز جهودها لتأمين ما طلبت .. أو ما ادّعت أنني أطلبه!

حين استدار بنا القارب إلى مكان آخر في النهر ، سألت الصديق التايلاندي : كيف أفنعت المرأة بأني كنت راغبا حقا في الشراء ولكن هنالك سببا يحول دون ذلك؟! - هذا أمر يسير تماما .. في الواقع أن المرأة عرضت أسعارا يسيرة ومتهاودة للحيوانات الصغيرة التي جاءت بها ، ولكني قلت لها إنها تبالغ وإن من المعيب حقا أن تتعامل مع سائح أجنبي صديق لي على هذا النحو! سحب الصديق مجدافه وانطلق مجددا عبر النهر .. لقد حل المساء بكل أنواره الملونة المبهرة التي تحيط بالنهر ، وكان علينا أن ننهي التجوال في منطقة قريبة يتجمع عندها الأجانب للاحتفال بهذه الزيارة .. المكان منبسطة مجاور تماما للنهر ، تشتري من هناك بعضا من الألعاب النارية وتضعها في أماكن محددة مخصصة لهذه الغاية ، حيث يتولى شخص مسؤول إشعالها لتملأ المكان أنوارا متقطعة ، وتغمر الناس بصيحات هستيرية كلها مرح وسعادة .. كأن الجميع يكرم السوق العائم العتيق بما يستحق!



كل ما تطلبه مجاب هنا في السوق العائم



(روعة إندونيسيا تكمن في تنوعها الجغرافي والسكاني)

العار أن يخسر الديك .. إنها مسألة كرامة!!

لم يكن في بالي أن أزور إندونيسيا من دون أن أذهب إلى (بالي)! إنه إغراء الطبيعة والتنوع والسحر يناديني .. وحين تتمكن من الوصول إلى جزر إندونيسيا أعلى وأسفل خط الاستواء في الجانب الشرقي من الأرض ، فإن من الصعب عليك أن تهدر فرصة زيارة البركان الصخري العجيب (تاناو لوت) الذي تستفزه الطبيعة كل عقود من السنين ، فيثور ساخطا ليعيد تركيب المكان وترتيبه! بركان يفجر غضبه على أناس لا حول لهم ولا قوة ، فتختفي جبال وتظهر تلال .. تتلاشى مدن ، وتنهض بدلاً عنها قرى أو قصبات متناثرة متشظية أخرى بعد أن تلملم جراحها وتحفظ بسر الحياة برغم ما ينتظرها في دورة الزمن المقبل من ثورة أخرى للبركان!

في الرحلات الجوية الداخلية يستغرق الذهاب إلى مقاطعة بالي التي تتألف بدورها من عدة جزر متفاوتة الحجم ، ساعتين .. لا يهم .. فهذه المقاطعة تنصّر الاهتمام العالمي بين حين وآخر بكل انتفاضة للطبيعة تترك خسائر في الأرواح والإمكانيات ، لكنها لم تغر تلك الجاذبية العجيبة التي تتمتع بها المنطقة .. كل ما يخطر في البال من محاسن الطبيعة تجده هناك ، ولهذا تعدّ بالي من المناطق الأكثر جذبا للسياح في العالم على امتداد فصول السنة!

* * *

كل هذا معلوم عندي على الورق ويحفز على الذهاب .. لكن ما رأيك إذا اخبرتك بأن الهاجس والدافع والسبب وراء

ذهابي إلى بالي مختلف تماما؟! إنها مصارعة الديكة!!

في بالي في وسعك أن تعيش أجواء أخرى غير البراكين والأعاصير والغابات الكثيفة التي لم يسر غورها كل بني البشر .. إنها الأجواء المختلفة للمنافسة .. في الكثير من الساحات الرئيسة أو الحدائق العامة يستعريك منظر متكرر .. حلقات واسعة منتظمة من البشر يصفقون بحماس منقطع النظير لحدث ما يجري أمامهم .. ربما يدور في خلدك أنها حفلة

للغجر يستعرضون فيها فنونهم التاريخية الآخذة في الزوال مع تقدم الزمن .. ولكن الاقتراب مما يجري يكشف لك عن جانب بارز من الثقافة الإندونيسية .. على الأقل في بالي التي عرفت على مر التاريخ بتنظيمها منافسات صراع الديكة والتي تحولت إلى تجارة رائجة رابحة يغذيها الحضور المتزايد للسياح الأجانب .. للمشاهدة أو للمراهنة!

حشرت نفسي وسط الوقوف لكي أرى عن كثب ما يجري .. التفتُ إلى الجانب ووجدت رجلا بدا واضحا من ملامحه أنه أوربي ، ومعه زوجته أو رفيقته .. حين التقت العيون هز رأسه مرحبا ، إذ اكتشف أنني أجنبي وكان سؤاله : من البرتغال؟!

- لا .. أنا عربي من العراق .

* واووو .. هل تستهويك مصارعة الديكة فجئت إلى هنا .. هل تراهن عليها؟!

- هذه زيارتي الأولى إلى بالي ، وهذا هو يومي الأول فيها .. جئت لكي استطلع ما يجري بعد أن قرأت الكثير عن مصارعة الديكة ، كما أنني شاهدت يوم أمس برنامجا تلفزيونيا محليا يتحدث عنها .. ربما يتحدث بالذات عن هذه المنافسات التي تجري أمامي الآن!



سائح تايلاندي في اندونيسيا

- * هذا صحيح .. إنه موسم الذروة ، واسمح لي أن أقدم لك نفسي أنا خورخي ثاباتيرو من إسبانيا وهذه زوجتي أنخيلا .. أعمل باحثا في هذا المجال!
- باحث في مصارعة الديكة؟!
- * لا تستغرب .. فأنا أكتب بحوثا ولديّ برامج ، وأنا مساهم مهم في المجلة الشهرية التي تصدر هنا في إندونيسيا عن كل ما يتعلق بهذه المنافسات؟!
- ومجلة شهرية كذلك؟ ماذا أيضا..
- * هذه ظاهرة اجتماعية تحولت إلى منبع كبير وعميق للربح .. المنافسة ليست بين ديكين أو حيوانين كما يظهر لك .. إنه صراع بين مراكز القوى هنا في هذه المقاطعة .. صراع تغذيه عصابات وزعامات مهمة هنا ، حتى أنني أستطيع القول إن



الازحام المروري في.. العاصمة الاندونيسية .. أو الموت على مهل!!

- هنالك مافيا شديدة القوة والبأس تتحكم في كثير من مفاصل هذه الظاهرة!
- وهذه الدماء التي تسيل؟!
- * ليت الأمر ينتهي عند هذا الحد .. أصحاب القلوب الضعيفة لا يمكن أن يصمدوا هنا خصوصا لمن يشاهد صراعا بين ديكين مسلوبي الإرادة للمرة الأولى .. لقد تطورت المنافسة من شحذ المنقار والأظافر والأطراف ، إلى وضع شفرات مثل شفرات الحلاقة في أطراف الديكة ، كي تكون الإصابات سريعة ومميتة .. أنت بعد دقيقة أو دقيقتين ستري ديكا وقد وقف ثابتا على جثة ديك آخر في دلالة على نهاية نزال ومن ثم الشروع الفوري بنزال آخر!
- قلت محتجا: وأين تذهب دعوات الرفق بالحيوان؟!
- * لا مكان لها هنا .. في هذه الظاهرة الاجتماعية يعني الفوز منتهى الاعتداد بالنفس .. وتعني الخسارة كارثة ، لا بل إن

بعض الملاك هنا يضعونها في مصاف العار .. خسارة الديك تثلم الكرامة .. لا شك في هذا!!

* * *

في أوج الصراع الذي يجري أمامنا ، حدثت جلبة شديدة في المكان ، وأسرع الجميع مهرولا إلى أماكن متفرقة ، فقد حضرت الشرطة!

اتخذتُ لي مكانا جانبيا من بعيد كي أراقب ما يجري .. في الأصل تسبب نزال بين ديكين في شجار بين المالكين وهما في العادة من علية القوم ومن المتنفذين في المدينة .. فكان لا بدّ من استدعاء الشرطة .. وقد سمعت أن السلطات المحلية هنا تبسط النظام من خلال هذه المنافسات ، لأنها مجال لتصريف الشحن النفسي الناجم عن صعوبة العيش ، فعند صراع الديكة يتم تفريغ طاقة الرفض السياسي!



البرد القارس عند أعالي الجبال يستوجب التدفئة على الطريقة القديمة

ولهذا ، لم يتعد حضور قوة الشرطة سوى الانتشار في المكان ووقف المنافسة ومحاولة مصادرة الديكة المتبقية التي تنتظر دورها في النزالات ، ولكن مثل هذه المحاولات تنتهي على الفور بإبقاء الوضع على ما هو عليه بعد أن تتولى الرشوة علاج الموقف!

دقائق قليلة والتأم جمع الناس والسياح من جديد ، واستؤنفت المنافسات التي تعني في المفهوم السائد هنا فحولة ورجولة أصحاب الديكة أكثر من الديكة نفسها .. فالمالك المنتصر يمشي في خيلاء ، بينما ينكسر صاحب الديك الخاسر ويندب حظه .. إذ ربما تتسبب هزيمة الديك الذي لا رأي له في الصراع حدّ الموت ، بخسارة ثروات كبيرة .. أنا لاحظت أحدهم وقد وقع على سند بيته الصغير للحصول على مبلغ أقل من استحقاق المنزل ، وذلك لكي يتمكن - وفقا لظنه - من تعويض خسارته بثروة كبيرة ومن ثم شراء منزل أكبر!

وغالبا ما تنتهي الحكاية عند مأساة أكبر ، عندما يفلس العشرات من أصحاب الديكة أو المراهنين في حين تستأثر بالثروة الفاحشة قلة قليلة من تجار هذه المباريات!

إنها (ثقافة) جاء بها المستعمر الأوربي وتحديدًا الإسباني ، أنطلق بها في الفلبين باستقدام فصيلة نادرة من الديكة المكسيكية أو الإسبانية لاستقطاب الناس والاستيلاء على أموالهم ، وقد زحفت هذه (الثقافة) من الفلبين في اتجاه الجنوب لتصل إلى إندونيسيا وغيرها من دول المنطقة .. وهذا يفسر الشراسة التي تبدو عليها الديكة مثل الملاكمين الذين يدخلون الحلبة في منافسات المحترفين على مستوى العالم!

إنها التجارة السهلة التي حاول البرلمان في إندونيسيا وقفها ، لكنه يفشل في كل مرة ، لأن الرفض ينطلق من أغلبية في البرلمان نفسه ، وتذهب بذلك كل الدعوات إلى الفرق بالحيوان .. الحيوان الذي ينشأ على إسالة الدماء ، بما في ذلك النظام الغذائي الذي يتبعه .. فقد علمت أن من بين الأسباب التي تجعل الديك هائجا قبل دخوله الصراع ، أن المنظمين يطعمونه عقاقير تنشط كل روح العداء لديه ، بما في ذلك وضع الفلفل الأحمر المطحون في مكان حساس من جسمه!

لا تنتهي التحديات العجيبة عند حدود صراع الديكة ، فهناك مشاهد مرعبة لسفك الدماء أبطالها صنف مفترس من الحيوانات .. إنها نزالات من العيار الثقيل .. أعني بالثقيل مشاهدها القاسية كما أعني المبالغ الطائلة التي توضع للرهان



الكل يراهن على الديك في بناء مستقبله!!



شفرت الحلاقة تحسم صراع الديكة!

عليها .. إنها معارك شرسة تخوضها الكلاب المدربة من أجل قتل الخنازير البرية التي يصيدها المزارعون في مقاطعة جاوة! مشهد معتاد هنا حين يظهر كلب من فصيلة بيتبول ويطلق له العنان في حلبة ليقا تل خنزيرا .. ينقض الاثنان على بعضهما البعض ويقتتلان، ثم تفصل بينهما بشراسة مجموعة من الرجال المسلحين بالعصي. ولا يتردد أحدهم في شد ذيل الكلب ليبعده عن الخنزير.

طقوس ومراسم خاصة تسبق هذه المنافسات الدامية ، إذ تدور سيارات الحمل في الطرق الرئيسة والأزقة وهي تعلن عن هوية وطبيعة الكلاب والخننازير التي سيجري الصدام بينها وذلك في إطار العادات المزعومة للمناطق القروية .. وهذه المبارزة بين الحيوانات التي تدور في جميع أنحاء مقاطعة جاوة الغربية ، تنظم على مدار السنة - عادة أيام الأحد.. وتنظم غالبا في شكل دوري له ضوابطه وشروطه .. وفي تفاصيل هذه النزالات ، يتولى صاحب الكلب دفع رسوم التسجيل لمشاركة كلبه.. ويطلق المنظمون الخنزير البري في الحلبة، ثم الكلب الذي سيطارده.. بعد فترة يفصلون بينهما، ثم يدخل كلب آخر إلى أن يُقتل الخنزير البري.. وإجمالاً، قد يتقاتل الخنزير البري الواحد مع عشرات الكلاب!

أما المتفرجون فيتراهنون على الكلب الذي يريدونه أن يفوز ويصرخون ويستمتعون ، وفي النهاية، يحصل الشخص الذي هزم كلبه الخنزير البري على جائزة مالية قد تبلغ 2000 دولار أمريكي ، أو في بعض الأحيان جوائز أخرى مثل دراجة نارية.

ومن أعجب ما سمعته هناك عن هذا اللون من النزالات الدامية أن المتنافسين يرون أن إشراك الكلاب في هذا النوع من القتال ينمي براعتها في صيد الخنزير في البرية ، حيث تتهم الخنازير بأنها تدمر محاصيل المزارعين في المقاطعة .. ولكنها في نهاية الأمر معارك وحشية تقضي على الخنازير والكلاب .. كلما كان الكلب أعنف خلال المبارزة، فإن سعره سيرتفع..



ستضطرت إلى تناول غداك وسط الزحام

وتباع الكلاب المدربة على القتال عبر مجموعات فيسبوكية متخصصة في هذه المبارزات ، أما الخنازير البرية فتُصطاد في أماكنها الطبيعية وتحبس في أقفاص لعدة أيام لجعلها خائفة وشرسة!!

* * *

وإلى العاصمة جاكرتا .. هنا أصدق صور الزحام الخانق الذي لا يطاق!
في الأسبوع الأول من وجودي في العاصمة الإندونيسية ، اكتشفت أن زحام الطرق في مدينتنا الحبيبة بغداد ، والذي نشكي منه كل يوم ، يعد نعيما ورفاهية بالمقارنة مع الاختناق المروري في العاصمة ..
مثال أطرحه لتقريب الصورة .. المسافة بين ساحة الفردوس وساحة التحرير تحتاج إلى ساعة بالسيارة في أقل التقديرات وفقا للمعيار الإندونيسي .. وقسْ على ذلك ، لتجد أن كثيرا من ساعات اليوم تمضيها في الطريق! .. ربما تتناول طعام الغداء أو العشاء وأنت محشور في السيارة المحشورة بدورها في زحام رهيب!

في كثير من مناطق العاصمة ، يُفضل تماما أن تتخذ من قدميك وسيلة للتنقل ، وفي الاحتمال الثاني تبقى الدرجة الهوائية أو البخارية خيارا متاحا أقل عبئا من استخدام وسائل النقل المعروفة في العالم مثل الحافلات الكبيرة أو السيارات الصغيرة ، وبالطبع فإن زحاما كهذا ينتج أكبر نسبة من التلوث على امتداد العالم تصاحبها نسبة رطوبة مرتفعة جدا ، يصبح معها التنفس صعبا إن لم يكن مستحيلا في كثير من أوقات اليوم!

شخصيا كنت حين اتحدث ، ابتلع حروفي مع أنفاسي ، فلا يخرج إلا بقايا محاولة مستميتة مني للتعامل مع كمية

الاكسجين المحدودة المتاحة في هذا الفضاء الواسع المحمل بالتلوث!

* * *

ولكن مثل هذه الصعوبة في التقاط أنفاسك ، لا تلغي أبدا كثيرا من المعالم الرائعة التي تتمتع بها إندونيسيا هذا البلد الذي يتصدر البلدان الإسلامية سكاناً .. وفرة سكان وتنوع عرقي وطائفي وسياسي واجتماعي نادر .. كل هذا التلون الفريد لم يكن في يوم من الأيام سبباً للتباعد أو التنافر بين مكونات هذه الصورة التي تختلط فيها المساحات الخضراء المفتوحة مع البقع البركانية الكبرى التي تخمد على مدى طويل ثم تجدد نشاطها بين زمن وآخر حين تثور لتخلف صورة سوداوية حزينة ، أو حين تعصف الأعاصير بكل ما وضعت يد الإنسان من عمران وحداثة على هذه الأرض..

إنها إندونيسيا التي تتنوع فيها مظاهر الحياة ، وتتلون فيها انعكاسات الطبيعة ، فمن مظاهر الزحام الشديد الذي يملأ أوصال الشوارع الفسيحة أو الضيقة إلى الغابات الكبيرة التي لم تطأ قدم الإنسان بعض دروبها .. ومن الدراجات الصغيرة التي تحرك مفاصل الحياة في كل لحظة على الطرق الواسعة إلى ذلك العمران المُنيف الذي يقدم الجانب الآخر لبلد يتألف مما يزيد عن ثلاث عشرة ألف جزيرة ، وهو عدد الجزر المأهولة فقط . بالإضافة إلى آلاف أخرى غير مأهولة بالسكان ..

هكذا تظهر إندونيسيا في حُلَّتِها المتداخلة التي تتقاطع فيها الألوان ، لكنها في النتيجة تقدم مشهد الحياة كاملاً يتسع لمئتين وخمسة وسبعين مليون نسمة ..

وقد أدى وقوع إندونيسيا أعلى وأسفل خط الاستواء ووجودها في منطقة غير مستقرة من الناحية الجيولوجية إلى تنوع في التضاريس والجغرافيا ترتب عليه تنوع بيئي ومناخي كبير ، مع درجة حرارة معتدلة ومتساوية تقريباً في جميع فصول



لابد من الدراجة كواحد من الحلول المتاحة

السنة إلا تلك المناطق الواقعة على مرتفعات جبلية ، كما أن بعض المناطق تتعرض لخمسمائة هزة أرضية سنوياً، كما تختلف معدلات المطر .

والحديث عن إندونيسيا لا بد أن يأخذنا إلى ذلك الحزن الذي غرقت فيه أمة بأكملها حين تربص بها إعصار تسونامي ليقتلع كل شيء وليزهق أرواح المئات من الآلاف ، وليشرد عدداً أكبر من الناس البسطاء الذين وجدوا أنفسهم في لحظة ثورة الإعصار وهم في العراء يتلخفون بالسماء!!

لكن الشعوب الحية التي تقوم على أساسات تاريخية وجغرافية بل وإنسانية متينة ، لا بد أن تعود إلى الحياة وهي أكثر عزماً وأشد مضاء.. ولولا هذه أو تلك ، ما بقيت إندونيسيا علامة إنسانية مشرقة ولو في ليل الطبيعة الحالكة .. الثائر عليها على الدوام!!

* * *

نعرف (سوق الجمعة) وكثيراً مما يرتبط بهذا اليوم المبارك ، لكنني اكتشفت في جاكرتا أن الشعب الإندونيسي لديه تقليد اسمه (زي الجمعة) الذي يكاد يكون موحداً في الكثير من الدوائر أو المؤسسات في هذا اليوم .. لكل منها زيه تبعاً لنوع الخدمات التي تقدمها!

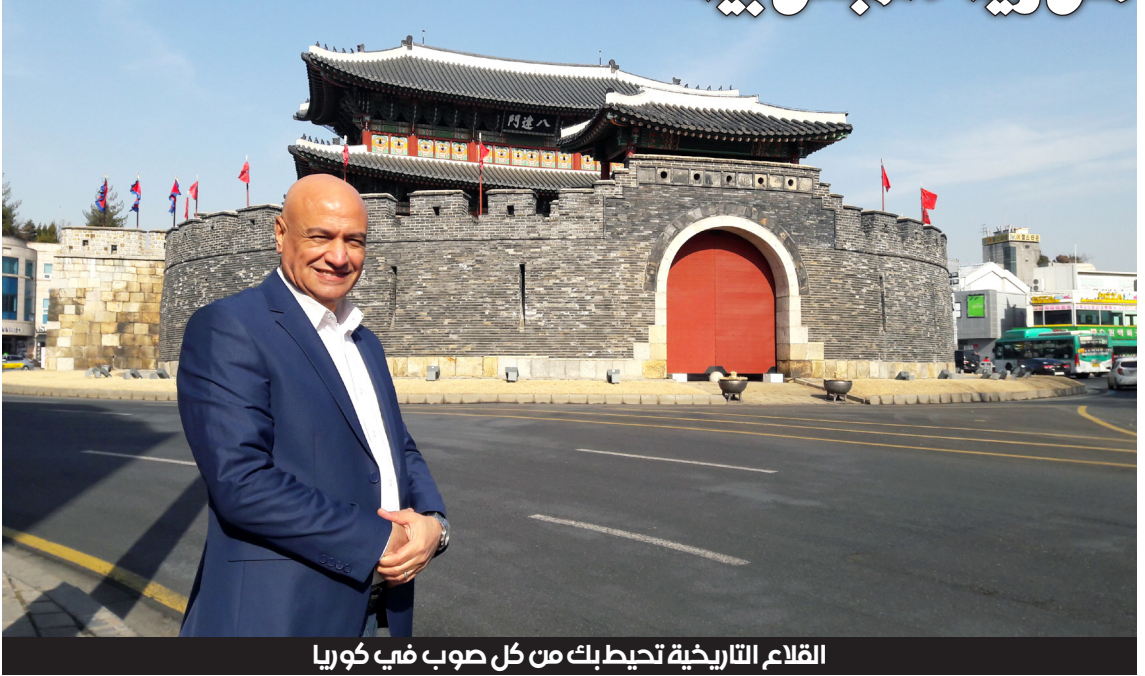
هذه آخر صورة دخلت مخيلتي واستقرت فيها ، من بلاد الجزر والبراكين والأعاصير ومافيا الديكة!!



صراع الكلاب مع الخنازير البرية في إندونيسيا



سوق الجمعة في اندونيسيا يقتضي ارتداء الموظفين زي الجمعة



القلاع التاريخية تحيط بك من كل صوب في كوريا

صنعتُ حلوى الفستق للكوريين .. على قارعة الطريق!

قال لي بائع الحلوى مبتسما وقد واجهني بكل أدب الدنيا عند قارعة الطريق : خذ هذه المطرقة!
أفلتت مني الكلمات والعبارات وتلاشت من على لساني ، ولم أرد سوى بأن أفرد يديّ الاثنتين تعبيرا عن الدهشة .. ثم
تمالكت نفسي ، وقلت : ما شأني وهذه المطرقة الخشبية الكبيرة؟!

- ستصنع لنا الحلوى الفستقية!

* هل أنت جاد أيها الرجل في هذا الطلب؟!

- كل الجدية .. لماذا لا تخوض التجربة بنفسك ؟ فقط أمسك بهذه المطرقة .. وانتظرنني لحظة لو سمحت!
ثم ذهب الرجل إلى داخل المحل وخاض في حوار سريع مع امرأة تعمل في زاوية من المحل يبدو أنها زوجته ، ليأتي
بمطرقة ثانية له وقال : هذه لي!

ثم وضع مقادير محددة من الطحين والزيت والسكر والحليب ، وأضاف إليها قدرا كبيرا من الفستق الحلبي المطحون
، عندها التفت إلي مجددا وقال : جاهز؟!

- مَطَطْتُ شفتي وأجبت : جاهز ..

كان عليّ أن اتابع حركة البائع الكوري ، لكي أجاريه في العمل ، فبدأنا بضربات متناوبة متلاحقة لمزج كل هذا الخليط .. السرعة هنا واجبة قبل أن يتيسر الخليط ويصبح من الصعب عجنه والوصول إلى حلوى طرية لامعة تفتح النفس وتلقى إقبال الزبائن وهم يهرون على مدار الساعة أمام واجهة المحل ، ولم يكن مشهد صناعة الحلوى يستنفرهم كما استنفرني!

انتهت ضرباتنا بأن تكونت لدينا عجينة كبيرة لونها أميل إلى الأخضر .. كان ذلك مؤشرا على أن الحلوى تقترب من التجهيز ، وهذه أول وجبة طازجة تتم صنعها اليوم ، بينما اصطف الناس حولنا في طابور منتظم بانتظار إكمال تجهيز كرات الحلوى الصغيرة التي توضع في علبة مسطحة ، ثم يجري بيعها للمارة الذين اعتادوا أن يتسّلوا بها بينما هم يتمشون ويتسوقون في الشارع التجاري الرئيس لمدينة إينشون التي تقع في شمال غربي كوريا الجنوبية وهي بمثابة عصب الرئة لاقتصادها المتنامي المتعاضم!

خرجت من التجربة ورأسي يدور حول الناس الذين تجمعوا .. ربما أردت قراءة ردود أفعالهم لما صنعت أو أنجزت .. شاهدت الرؤوس تومئ بالقناعة ، فضحكت وحملت حقيبتتي الصغيرة ، ومضيت في سبيلي مع المصور الذي كان يصحبني..

وفجأة سمعت صياحا من خلفي .. التفتُ ، فوجدت البائع يجري بسرعة ورائي حاملا علبة من الحلوى التي صنعتها .. قال لي بعد انحناء عميقة : لا تنس العلبة الخاصة بك .. أنت صنعت لنا الحلوى ، ويسعدنا أن تذوّقها معنا!

* * *

هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها إينشون المدينة التي تضم واحدا من أكبر المطارات في العالم وذلك لاستيعاب أعداد المسافرين إليها بغرض السياحة أو التجارة ، وهي لدى الكوريين تحمل ريننا تاريخيا عاليا ، إذ أنها شهدت معارك



كل شيء مباح للأكل هنا.. الحديدان والسحالي ومايثير القرف لدينا وليس.. لديهم!!

وحروبا كبرى على مرّ التاريخ ، فلا عجب أن تجد حولها سورا عملاقا يحيط بها يحاكي سور الصين العظيم من منطلق دفاعي عن الإقليم الذي تقع فيه المدينة التي حوصرت كثيرا من أعداء الداخل والخارج .. ومازالت المدينة تحتفظ بجانب من سور (هوا سي يونغ) السور العملاق الذي يقع في مدينة سو وون التي تتاخم مدينة إينشون ، ويعدّ واحدا من أبرز المعالم السياحية في كوريا الجنوبية..

وفي الإطار الأوسع لبلد مثل كوريا الجنوبية ، لا بدّ من وصفها بأنها قطعة من الإقبال على الحياة ، وعشق العمل الذي تحول إلى عبادة فيها التقديس .. العائلة كلها تعمل ولا مجال للتراخي ، فالبلد في حالة نهضة مستمرة ، وكلما قطعت شوطا في التطور ، كان شوط آخر أطول وأصعب ينتظرها!

لهذا لم يكن عجيبا أن تصبح كوريا الجنوبية وهي واحدة من بلدان ما يسمى النمر الآسيوية الأربعة (معها هونك كونك وسنغافورة والصين تايبيه) حجر الزاوية في الكثير من التحوّلات الاقتصادية والصناعية ليس في القارة الصفراء وحدها وإنما في عموم المعمورة..

هذا بلد تحبه .. الحكاية تبدأ بقليل من الألفة ثم يجتاحك الإعجاب لتشتاق إليه .. إن جرّبت الذهاب إليه ، فستسعى أن تزوره في كل حين .. بلد تتصدر مشهد الحياة فيه صباحات مشرقة مفعمة بالأمل ، ويخوض فيه الناس غمار التفاصيل اليومية بجدية عجيبة تطلعا إلى المستقبل الأفضل ..



قالت لي المرشدة السياحية.. نحن نتصر لأننا نبني بلدنا بصدق



حين زرت مع منتخبنا الاولمبي كوريا الجنوبية عام 2004

في اللغة المحلية تعني كوريا الجنوبية جمهورية الهان الكبيرة .. وهي جمهورية آسيوية تتخذ من أقصى الشرق الآسيوي موقعاً جغرافياً لها ، كما أنها تقع في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة الكورية ، وتحدّها من الشمال كوريا الشمالية التي كانت تكوّن معها شبه الجزيرة حتى عام 1948 ، قبل أن تترك عوامل السياسة الدولية فعلها في إحداث شرخ كبير لم يندمل بين الشعب الواحد ، فصارت للشطر الجنوبي كل فرص النجاح والتطور والانفتاح ، بينما تمسك الشطر الشمالي (المناضل) على الطريقة التقليدية ، بشعاراته المزمّنة الموغلة في القدم لينغلق تماماً على نفسه!!

المجتمع الكوري بصفة عامة مجتمع شاب يتجه نحو التهرّم . تفوق نسبة التحضر فيه ثمانين بالمائة من التركيبة السكانية الكورية .. ويدين الشعب الكوري بأكثر من ديانة في مقدمتها الشمانية والبوذية والكونفوشيوسية ثم المسيحية فالإسلام في بعض المدن ..

* * *

كان لا بدّ أن أصف كوريا بشيء مما يستحق أن يُذكر بعد أن ذهبت إليها مرات عدة ، ولم أكن في المرة الأولى أحمل غير فكرة أن كوريا وجه آخر للصين أو اليابان .. وهذا انطباع مغلوط وقاس ولا يستحقه الكوريون .. لا سيما إذا أدركت كم هو حجم عشق الكوريين لبلادهم .. إنهم يضعون تحت إسمها كل خطوط الدنيا الحمراء!

ويحدث لو أنك أنفقت خزائن قارون للدعاية والترويج لبلدك ، أن تجد نفسك في خاتمة المطاف عند نقطة الصفر وقد قبضت الريح ، لأنك اتبعت استراتيجية من يحاول تحريك الجبل الجاثم على صدر الأرض آلاف السنين!

لكن قليلا من هذا المال يمكن أن يحقق المُنَى والغايات إذا كانت الوسيلة هي الرياضة التي أثبتت لي شخصيا - على

الأقل - أنها قادرة على أن تحرك سلسلة طويلة من جبال الجبل بك وبحضارتك وبقومك ، وبما يمكن أن ترمي إليه من وراء أية ممارسة رياضية قد تبدو في ظاهرها بريئة هيئة لا تقوى على تحميلها بأغراضك الترويجية ، لكنها في واقع الأمر أقدر وأبرع مما تتصور!

وأنا في هذا الإطار لا أملك إلا أن أبصم بالعشرة لما يفعله بنو شرق الأرض وبالذات الشعب الكوري الجنوبي . إنهم مذهلون في مشروعهم الحضاري الخلاق ، رغم أنهم يبدون ذاهلين حين ترصد نظرتهم إلى الأشياء .. لقد استفزني الكوريون بقدرتهم على تطوير فكرة (أن كرة القدم .. يا قاتل يا مقتول!) وجعلها مَعبرا إلى التفاهم وإلى بناء الصلات وإلى الارتباط بالقيم الإنسانية الرفيعة .. وحين يتسنى لك الذهاب إلى الشواطئ هناك بعد أن تجتاز طرقا وتعبر جسورا



(هواسي يونغ) السور العملاق يحاكي في فكرته سور الصين العظيم

لا أثر فيها للإشارات الضوئية ، تقع عينك على مشاهد بامتداد البصر ، تحكي قصة امتزاج العاطفة بالصحة بالطموح بالرياضة!

إنها شواطئ تغمرها ملاعب كرة القدم والسلة والتنس .. تجد فيها الآلاف وقد انتشروا في كل زاوية في بانوراما رياضية شعبية صابحة تعجز أكبر شبكات الإعلان في العالم عن تشكيلها أو إظهارها . إنها الرياضة في أوسع مفهوم ، وفي أغنى مضمون ، وفي أبهى حلة . إنها رياضة متداخلة مع مجاميع العشاق الذين اتخيل كلا منهم وكأنه قيس بن الملوّح ولكن على الطريقة الكورية التي يندى لها جبين الغريب خجلا لهذا السمو والتداخل في الصور!

معذرة .. فقد نسيت أن أقول لكم أين عشت هذه البانوراما التي تقطر انسانية ومشاركة وتفاعلا .. إنها على شواطئ النهر العظيم الذي أخفقنا أنا وزملائي في نطق اسمه ، فانحنى الدليل الإعلامي الكوري الذي ينحني لكل شيء وعلى

كل شيء .. حين تطلب منه شيئاً ينحني .. حين يفرح ينحني .. حين يبدو عليه الحزن أو الشجن ينحني .. حين يتشاجر ينحني .. إنه ينحني والسلام!

انحنى الدليل الكوري هذه المرة ليقول لي : أنتم العرب تسمّون نهراً (خان) أو (كان) أو (يان) ! .. إنه يا صديقي نهر (هان) .. هان يا زميلي .. ألم تسمع أغنية (قالوا لي هان الود عليه) لعبد الوهاب؟!

أصابني الدليل الكوري بالذعر ، ثم دار رأسي في أرجاء المكان .. نعم إنها أغنية موسيقار الأجيال محمد عبد الوهاب . ابتلعت ردة فعلي ، وحاولت التماسك وقلت للكوري : هان .. نعم هان .. ولكن من أين لك بـ (هان الود) وقد غناها عبد الوهاب عام 1959 ؟!



مطرقتي الخشبية لصناعة الحلوى وليست لأغراض عدائية

قال لي الكوري : لقد كنت هناك ، فأمني مصرية من المنصورة!

عدتُ إلى ذاتي لأقول : ما الذي يمكن أن يقدمه الكوري أكثر من هذا الأدب والحضور والمعرفة الموسوعية كي يرسم صورة مشرقة لبلاده من دون أن يتكلف قرشا واحدا؟!

أكبرت في (الدليل) الكوري حبه وتفانيه لبلاده .. ثم انتقلت إلى الصورة الأكبر .. صورة ما يمكن أن تروّج به الرياضة لنا نحن أصحاب الحضارة والفنون والقلم والأديان ، بقليل من التدبير ، وبشيء من النظرة الحصيفة إلى كل فعل رياضي مقرون بالرغبة في الدعاية للبلد ، ولكل ما يتصل بالبلد..

* * *

في كوريا الجنوبية .. رأيت ولعا عجيبا بالكتاب .. وعشت بنفسني مصداق قول المتنبي ..



ضربات متلاحقة من أجل حلوى الفستق

أعز مكان في الدنيا سرج سابح

وخير جليس في الزمان كتاب ..

مائة الف زائر في أمسية واحدة لمعرض الكتاب السنوي .. رقم مدهش لم أكن اتوقعه في أي مكان على وجه الأرض!
رقم يفسر لي كيف أحدث الشعب الكوري كل هذه التحولات المتسارعة الناضجة في الابتكار والتحويل فيعملو نجمه في
الصناعة والتجارة!

أيقنت وسط جموع الناس وعشرات الآلاف من عناوين الكتب بمختلف لغات العالم ، أن شطارة الكوريين في الترويج
لوطنهم ، ولأنفسهم ، ولبضاعتهم تبدأ من مثل هذا المكان .. من معرض الكتاب..

* * *

حين ضغطت على زر الرد في هاتفي النقال ، كان على الجانب الآخر صوت مهلل مجلجل تكاد نبرة الفرحه فيه تحرق
المسافات ، ولا تكتفي باختزالها .. بالطبع كنت أستقري الفرحه ولا أراها .. فالمتحدث كان (الزميل) كيم هيو بارك
المحرر في صحيفة (سبورت توداي) الكورية الجنوبية ، وقد بادرنى بالقول : يوم أمس ضاق السجن بمن فيه وتذكرتك يا
صديقي على الفور وأريد الآن أن أقول لك إن ما كنت تقول إنه سجن للدجاج وليس للبشر قد امتلأ عن آخره ، والشرطة
لدينا كانت محرجة قماما لأنها لم تجد المكان المناسب لوضع المشتبه فيهم ريثما يتم التحقق من التهم المنسوبة إليهم!
هل هذه انفلاتة كلامية لم أحسب لها حين وضعتها على الورق؟! سألت نفسي بعد أن أطلعني (بارك) على التفاصيل ،

ثم تصورت أن القارئ سيذهب مذاهب شتى في لومي على هذه التخاريف .. ولهذا ، فإنني وعلى الفور أعود إلى أصل الحكاية الكورية وإلى الرابط بينها وبين الرياضة..

قبل ست عشرة سنة من الآن كنت مع بعثة المنتخب الأولمبي العراقي في العاصمة الكورية سول (وليس سيئول كما يلفظها الكثيرون خطأ) نتجول بين أبرز معالم المدينة الأسطورية . وفي زحمة الناس والمعروضات على أرصفة الشوارع ، لم تنتبه إلى أننا تفرقنا إلى جماعات صغيرة ، ولهذا فإننا لم نكن وقتها نعرف الطريق إلى فندق (تاورز) حيث نقيم .. واقترح الزميل الكوري الذي كان يصحب مجموعتنا أن نلتقي في أهم نقطة دلالة يعرفها كل سائقي التاكسي في المدينة وقد كانت محطة الشرطة ..

وحين مضينا إلى غايتنا أنا وحسين سعيد وبعض الإداريين ، لم نجد في المكان المحدد ما يدل على أن هنالك مركزا للشرطة .. ويبدو أن الصحفي الكوري التقط دهشتنا ربما لأنه يعرف أننا ننتمي إلى شعوب الشرق الأوسط التي تتصدر فيها كلمة (شرطة) كثيرا من الإجراءات ، فقال باسمنا : هذا هو مقصدنا .. هنا تدير الشرطة كل شأن أمني يهم الناس في هذه المنطقة !

وأقسم بالله العظيم أنني أصبت بالدوار حين عرفت أن هذا (الدكان) الذي يربض عند مفترق طريقين هو مركز الشرطة .. إنه مكان أشبه بالمحل الصغير لا تزيد أبعاده عن خمسة في سبعة أمتار ، وفي الواجهة علّق الكوريون فاترينة صغيرة



القصر الامبراطوري في اينشون يحتفظ بكامل عمارته وأناقته

تنطوي على صور (مجرمين) لم يتركوا إلا أخطاء عابرة تسمى جرائم ظلما وعدوانا وبهتاننا بالمقارنة مع ما يبتكره عتاة المجرمين عندنا وفي كثير من بلدان الدنيا!

ضحكنا ملء أصدقا، لكنه كان (ضحك كالبكا) كما يقول المتنبي، أين يذهب الكوريون مجرميهم؟ هل يتركونهم في العراء نهبا للبرد الزمهرير والمطر الذي يغرق مدنا بأكملها؟ أين تلك الغلظة والشفاه المزمومة والأجن المقطبة والجباه التي لا يחדشها سيف عنتر، وهو ما يميز، بلا فخر، الشرطة في كثير من بقاع الدنيا؟!

لم يدعني الزميل الكوري الدمث نهبا لمشاعري وقال لي: اقترح عليك الدخول إلى المركز كي تتثبت من أننا لسنا في حاجة إلى إشغال مساحة مترامية الأطراف لنجعل منها مكانا مؤقتا لمجرمين لا تجد الكثير منهم في وقت واحد.. إن الناس يأتون إلى هنا فرادى لأننا لا نجد الإجمام وقد ضرب بأطنابه بلادنا!!

منذ ذلك اليوم، وأنا أسأل الزميل بارك، كلما تحاورنا عبر التشات، عما إذا كان المحل الصغير الذي يسمونه مركزا للشرطة في مكانه ينتظر من (يسكنه) أم أنهم انتقلوا بمسدساتهم غير المستعملة و(كلبشاتهم) التي تشبه لعب الأطفال إلى (مكان) يليق بالشرطة!

كان بارك يجد حيرة في الإجابة عن تساؤلاتي، ولم يفهم في النهاية عبارة رددتها بعد أن ابتدعها سمير غانم في واحدة من أشهر (أفيهاته): التورته في خدمة الشعب!

منطقي ألا يفهم الصحفي الكوري جملتي الأخيرة، تماما مثلما عجزه عن فهم سؤالي المزمّن عن (بقالتهم).. عفاوا مخفرهم الضئيل الذي يتوسط الفنادق الفارهة!



كل ما هو معروض هنا.. حلويات في حلويات



مائة الف زائر لمعرض الكتاب في يوم واحد



نجمة قطبيّة توجّه فوّهات البنادق !!

كان الذهاب إلى الجزائر واحدا من أهدافي الشخصية التي تسبق أي هدف مهني .. فإن لم يكن الحدث الرياضي سببا في السفر ، فلا بأس أن أتحين الفرصة للذهاب سائحا .. فالحاضر التاريخي يشدني بقوة!

ولكن الهدف تحقق عام 2016 بشقيه المهني والسياحي ، حين توجهت إلى (المدينة البيضاء) وهذا هو لقب الجزائر العاصمة ، لتسلم وسام الإعلام الرياضي العربي في احتفالية كبرى ، شاركتني فيها نخبة من الإعلاميين من دول عربية أخرى ، فكانت المهمة لنيل التكريم والاستمتاع أيضا ، بدلا من الاكتفاء بالجري وراء الحدث لاقتناص أهم ما في تفاصيله أو تحولاته!

* * *

كان هنالك حافز (مزمّن) يطاردني بينما رغبتني تتزايد في زيارة بلد المليون شهيد ، فقد عرفت من كثير من الزملاء الجزائريين أن العراق ترك تأثيرا بالغ الأهمية في تكوين الشخصية الجزائرية من الناحيتين التعليمية والثقافية..

فالكل هناك يعترف بأن الجزائر تخلصت من سياسة محو الهوية والتي فرضها المحتل الفرنسي ، بفرض التعليم باللغة غير العربية واعتماد بالفرنسية حصرا لتحقيق هذا الغرض الخطير .. تخلصت بفضل المجهود الجبار الذي قدّمه العراق في تزويد المدارس الجزائرية بالمنهاج التعليمية للمراحل الدراسية المختلفة خلال العقد الستيني حين كانت البلاد خارجة للتو من ربة الاستعمار الفرنسي ..

لم يكتف العراق بهذا ، إنما حرص على إيفاد المئات من الكوادر التدريسية العراقية إلى المدن الجزائرية كي تقوم بالإشراف على تنفيذ تلك المناهج .. وقد دهشت حقا حين حدثني وزير جزائري سابق عن مدرسيه العراقيين وذكر أسماءهم وسأل عما حل بهم بعد العودة إلى العراق .. الرجل يتحدث عن رجال أسهموا في بناء شخصيته ، ولابد أن أغلبهم قد غادرنا إلى رحاب الباري عز وجل..

كانت لكل هذا التحول في المسار التعليمي هناك ، ثمار كبيرة حتى لو جاءت بطيئة أبرزها إحداث نقلة ثقافية انتزعت الأشقاء الجزائريين من الأسلوب الفرنسي القسري في التعليم وآثاره الثقافية بالذات ، إلى الولع باللغة العربية تعليميا وثقافة ، ومن هنا يعترف الجزائريون بفضل العراق ، ويضعونه في مكان أثير من الروح والقلب.

* * *

وصلت إلى الجزائر بعد أن فرض عليّ مسار الرحلة الذهاب والانتظار أولا في اسطنبول .. وهذا هو شأن معظم رحلات الخطوط الجوية العربية وخصوصا من المشرق العربي .

وصلت وكانت تدور في الذهن معلومة أولية لطالما استرعت انتباهي وزادت فضولي .. فالرئيس وقتها وهو عبد العزيز بوتفليقة كان أول وزير شباب ورياضة في أول حكومة عرفت الجزائر عام 1962 بعد التحرير ، وكان في الخامسة والعشرين من عمره!

مثل هذه المعلومة تبرّر تماما اهتمام الجزائر بالرياضة ، حتى أن حكومة عام 2016 كانت تضم خمسة وزراء يتوزعون بين كونهم لاعبي كرة قدم قدامى وصحفيين رياضيين من بينهم الصديق العزيز عز الدين ميهوبي وزير الثقافة! وزارة كرة قدم بامتياز .. هكذا قلتها في حفل التكريم العربي وكانت عيناى تنتقلان على وجوه الإعلاميين العرب والتي كانت تتوهج بالرضا والسعادة!



رؤساء الجزائر السابقون في جدارية تتصدر المتحف الوطني

ميهوي يُعدّ الوزير الأكثر أهمية في الجزائر ، على الأقل بالنسبة لعموم الناس وبينهم المهتمون بالصحافة والرياضة ، وحين ذهبت للقائه أكرمني بروحة الطيبة الراقية غاية الكرم .. فهو لم ينس أبداً أنه زميل صحفي وكاتب رياضي من الطراز الأول ، وهو طراز نادر من وجهة نظري!

كما أنه رجل يعرف معنى الإعلام والصحافة والأدب والثقافة من الأبواب المعرفية والمهنية الواسعة .. فهو في عز شبابه كان صاحب أول جريدة رياضية متخصصة تعرفها الجزائر وهي جريدة (المنتخب) وقد أسسها وأصدرها بنفسه ومن حُر ماله ، وهو مؤلف المسلسلات والكاتب المسرحي المعروف (له 24 مسرحية وأوبريتا باللغتين العربية والفرنسية) ، وهو الأديب والسياسي والمثقف البارز ، وهو شاعر له (25) مجموعة شعرية .. وهذه ليست مجاملة مني ، إنما هي



المتحف المركزي في الجزائر .. شهادات ترويح تاريخا عظيما

سيرته المتفردة التي تجمع بين الرياضة والأدب والفن والثقافة ، فضلا عن خلقه الذي يعرفه القاضي والداني ، وذلك في مزيج متجانس ، ولا أقول خلطة لا معنى لها .. فالإنسانية تتقدم لديه مهنة وسلوكا .. هكذا عرفته!

هذه فكرة لابد من تمريرها بعد أن عرفت أن الحكومة الجزائرية الحالية حكومة كرة قدم بامتياز ، إذ تضم أربعة وزراء آخرين لهم جذور متينة في كرة القدم وفي الصحافة الرياضية .. كل منهم جاء بمهنيته وعمله وحب الناس له .. لهذا ، فلا خوف على حاضر الرياضة أو غدها في بلد المليون شهيد!!

قال لي ميهوي اللاعب والصحفي الرياضي ووزير الثقافة أمام كل الزملاء الإعلاميين العرب : أخي أبو زيد .. وكيف العراق؟ وكيف العراقيين ؟ وكيف سعد قيس وشرار حيدر ؟ هل تدري أنني كنت وراء احترافهما في الجزائر منتصف التسعينيات؟!

وروى لي ميهوبي كيف أنه اخترق حصارا طويلا كان يحيط بإمكانيات اللاعب العراقي ، وأنه أثبت للجزائريين أن الكرة العراقية متقدمة وفيها نجوم كبار يمكنهم أن يحققوا الإضافة وهذا ما حققه سعد قيس وشارر حيدر.. ثم قال بكل الفخر كأنه يرسل كلماته ومشاعره إلى كل الحضور العرب : أنتم أشقاءنا العراقيين رمز ومُؤدج لكل العرب .. في كرة القدم مثلا أنتم المثل الصادق على الحياة بإنجازاتكم وبحضوركم البهي الذي يسعدنا غاية السعادة.. أنتم تمنحونا الصورة المثالية للشعب الحي الذي يعشق النجاح حتى في أصعب الظروف..

رددت على هذه المطولة العربية الجزائرية الرائعة بالشكر والعرفان .. ثم أكبرت في زميلي (ميهوبي) الكاتب الرياضي وأروع محلل في مجلة (سوبر) الإماراتية قبل توقفها ، روحه الأصيل .. ومضينا بعد ذلك في حديث النقد الكروي ..



خلال حفل التكريم بوسام الإعلام الرياضي العربي

لا حديث الثقافة!!

والآن ، وبعد المعلومات السريعتين ، يأتي السؤال المُفرح - المُوجع في الوقت عينه : كيف لا تكون للرياضة مثل هذه الحظوة الاستثنائية في الجزائر؟!

* * *

شارع المتنبي .. في قلب العاصمة البيضاء!!

إنها الحقيقة أو هذا هو اكتشاف المهم حين كنت اتجول في وسط المدينة وأمعن النظر في معالمها التي تمزج بين القدم والحداثة ، وحين تخطت قدمي ساحة الشهيد عبد القادر الجزائري ، عاد إلي همّي أو ولعي أو مرضي .. إنه الكتاب الذي لا فكاك منه!

في قلب العاصمة الجزائرية البيضاء تنتشر على مد البصر (بسطات) الباعة ليشكلوا معرضا دائما للكتب يُقام عند فجر كل يوم جمعة وينتهي عند المساء .. المعرض يتوسط ساحة البريد المركزي .. في كل أسبوع يأتي باعة الكتب كل حسب ما يملك أو يميل إلى بيعه بعد أن تحول بيع الكتب إلى مهنة ثانية له غير مهنته الأصلية على مدار الأسبوع .. هناك في (متنبي الجزائر) صادفني أحد الإعلاميين الجزائريين وقال لي مستنكرا:

يا سي علي اتق الله!

- قلت : أنا والله الحمد مُتقيه دوماً .. ولكن فيمن أتقيه من وجهة نظرك هذه المرة؟
رد مندهشا مستغربا : عندكم في بغداد العظيمة شارع المتنبي وتبحث هنا عن كتاب؟!
ما أروعه من رد ، وما أجمله من وصف لبغدادنا الخالدة!

وعلى وجه العموم ، لم تكن جولتي في (متنبي) الجزائر مثمرة بالمرة ، فأنا لم أجد إلا أقل القليل من الإصدارات باللغة العربية ، إذ أن (الفرنسية) مازالت لغة مهيمنة وهي صاحبة القدر المعلى، وهي معضلة يعمل الأشقاء الجزائريون المحبون لانتمائهم العربي على مواجهتها والتغلب عليها بتشجيع التأليف والإصدار باللغة العربية .. وفقهم الله!

* * *

ما زالت الجزائر تحتفظ بكل صلة تربطها بالتراث .. المطاعم التي تعيدك إلى عهود بعيدة مضت منتشرة في كل الأرجاء ، برغم زحف المطاعم الكبرى الفارحة وفق النمط الفرنسي والإيطالي والأمريكي والتي تستهوي الشباب .. لكنني كنت حريصا على اقتفاء إرث الماضي ، خصوصا حين جلست في الخيمة البدوية التقليدية مع عدد محدود من الزملاء الإعلاميين الجزائريين ، ليبدأ الطرب الذي لا تكاد تستوعب الكلام فيه نظرا للفروقات الشاسعة في اللهجة واللكنة بيننا وبين أشقائنا الجزائريين!



علي رياح مع عز الدين ميهوبي الكاتب الرياضي والوزير والمرشح للرئاسة



فبي (متنبيب الجزائر) جولة فبي شارع الكتاب

وحين التفت الزملاء إلى أنني أحسن الاستمتاع بالنغم والإيقاع وأجد صعوبة شديدة في فهم الكلمة والمعنى ، اقترحوا على المطرب الذي كان يحتفي بنا أن يشحذ ذاكرتي بإحدى الروائع الجزائرية .. (نجمة قطبية) الأغنية التي وُلدت في بغداد حين سجلها الفنان رابع درياسة تكريما للمدن الجزائرية خلال زيارته إلى بغداد مطلع السبعينيات ، ولهذا يعرف الجزائريون أن تكريم أي وافد من العراق لا بد أن يتوّج بهذه النجمة القطبية!

وإذا كان الوصول إلى الجزائر لا يتحقق في كل مرة لصعوبات معروفة في السفر بالنسبة لأي سائح عربي تحديدا ، فإن الحقيقة هذه استوجبت أن أختتم الرحلة بزيارة كنت مصمما عليها .. والمقصد هنا (نصب الشهداء) أو (مقام الشهيد) ، أو (رياض الفتح) كما يُسمّيه الأشقاء هنا .. النصب يقع عند إحدى ضواحي العاصمة وقد تمّ افتتاحه عام 1982 لمناسبة الذكرى العشرين لاستقلال الجزائر وتخلصها من ربقة الاحتلال الفرنسي في الخامس من تموز عام 1962 .. النصب عبارة عن ثلاث سعفات تلتقي عند منتصف المسافة البالغة 92 مترا .. تلتقي تعبيرا عن تشابك الإرادة والأمل بالنسبة للجزائريين في تجسيد غاية في الروعة ..

لكن النصب وحده ليس كل ما تجده في هذه المساحة الفسيحة الخضراء ، فهناك معالم أخرى لا بدّ لمن يعرف شيئا عن تاريخ الجزائر أن يتوقف عندها ، وأبرزها (متحف المجاهدين) الذي يُعدّ الذاكرة الحقيقية لمسعى الجزائر للتخلص من الاستعمار الفرنسي .. إذ تجد هنا أسماء وصور قادة التحرير والشهداء الذين قضوا في مواجهة المحتل ، كما تجد صورا متسلسلة للقادة الذين رأسوا الجزائر.

لكن العاطفة تتحفز وتوهج إلى أقصى مدى حين تتجول في قاعات المتحف ودهاليزه لتطّلع على مجسّمات كبيرة للمعارك التي دارت ، ومعها الأدوات الحقيقية للتعذيب والإعدام والتي استخدمها المحتل ، وكذلك الأسلحة التي

استخدمها المجاهدون في معارك الكر والفر مع الفرنسيين..
حين خرجت من الفضاء الواسع الذي يشكله (رياض الفتح) التقطت أنفاسي .. فلقد تولدت عندي القناعة الكاملة
بأنني رأيت ما يستحقه وعشاء السفر للقدوم إلى الجزائر!



في نصب الشهداء أو رياض الفتح مع الإعلامي الجزائري حسين بوصالح



الرحلة إلى دوشنبه كانت عامرة بالمصاعب .. والإثارة

الطائرة في خطر .. والكاميرا تستوجب الثبات!!

حين تكون مُعلّقًا بين السماء والأرض يحملك الطائر الميمون ، ترد في ذهنك ، وعلى لسانك وفي سجل هواجسك أو مخاوفك ، أسئلة شتى عن الحدود الفاصلة بين الحياة والموت .. أسئلة حول مصير مُعلق بهفوة غير مقصودة أو عُطل غير محسوب لجزء ربما لا تراه العين المجردة من كتلة الحديد المُحلّقة التي سلمت نفسها للريح والسحب!

ولكنك في الأحوال كلها ، لا تملك - وأنت على سفر - إلا الاستسلام لما أنت فيه .. الاستسلام لمصير لا يعلمه إلا الباري عزّ وجل .. وأنت فوق هام السحب لا تملك إلا التشبّث برحمته ، حتى تصل مقصدك ، فتحط الطائرة جسدها الضخم - الرشيق على مدرج الوصول والسلامة!

هواجس شتى من هذا القليل وغيره تنتابك وأنت تتخذ مقعدًا في طائرة ، لا فرق في ذلك بين مقعد وثير في طائرة مدنية فارهة ، أو مقعد خشبي صلب على متن طائرة عسكرية تؤدي مهمة (مسألة) محددة ، ولكن خارج نطاق الحروب!

* * *

تحركت السيارة التي تقلنا أنا والصدیق الکریم الفريق الرکن محمد العسكري إلى قاعدة جوية قريبة من مطار بغداد ، حيث كانت في انتظارنا حافلة فريق القوة الجوية .. والهدف والمقصد لنا مدينة دوشنبه عاصمة طاجكستان حيث كان يتوجب على (الصقور) خوض مواجهة ختام كاس الاتحاد الآسيوي - نسخة 2017 مع فريق استقلال دوشنبه .. المهمة هنا تتجاوز البحث عن لقب إلى السعي بكل السبل المتاحة للاحتفاظ به ، فلقد كان الصقور قد توجوا أبطالاً لآسيا في عام 2016 ، ولهذا فإن المسعى يتركز في استبقاء اللقب والكأس الآسيوية في الخزانة العراقية - الجوية ، وعندها سيكون هذا التحول منجزاً كبيراً في المقاييس كلها..

عصفت الريح الهوجاء التي داهمت العاصمة بغداد على حين غرة في ذلك اليوم ، بآمال السفر في الموعد المقرر الذي تم قبله استحصال الموافقة الرسمية - العسكرية للمرور في أجواء أكثر من دولة .. جلسنا في غرفة فسيحة بانتظار انجلاء أمر العاصفة التي حملت إلينا أطنانا من الغبار انعدمت معها الرؤية ..

كنت أقرأ على الوجوه ملامح الضيق ، ولكن كان لابد من التحلي بالصبر .. فالذهاب إلى بلد ينافس على اللقب في الختام ويخوض المواجهة على أرضه وبين جمهوره يقتضي التمسك بحبال الهدوء في الأعماق وعلى الملامح ، حتى لا يتسرب أي شعور سلبي إلى الجميع وتصبح أفكارنا مشوشة ومنصرفه بعيداً عن المقصد الأهم والنهائي!

ولكن كل أمل في الطيران تبدد بعد انتظار طويل ، فالريح تزمجر والرؤية غير ممكنة حتى بين شخصين تفصل بينهما مسافة عشرة أمتار ، فكان القرار الحاسم هو العودة إلى البيوت طلباً للأمان والراحة وادخاراً للجهد وترجيحاً للسلامة كأولوية بصرف النظر عن تأخر موعد الوصول إلى دوشنبه!

في اليوم التالي ، أعدنا الكرة ، واتجهنا بالطريقة نفسها إلى القاعدة العسكرية ولم يكن الطقس قد تحسن كثيراً .. هنالك شيء من الانفراج بالمقارنة مع اليوم الذي سبقه ، وكان علينا أن نجتمع هناك لنرى ما يمكن عمله .. وجرّت مداولات



محمد العسكري وحسام السيد وعلي رباح .. حديث الإنجاز الذي تحقق



هدأت العاصفة بعض الشيء وبأشرنا إجراءات السفر

عديدة حول خطورة التحليق في ظل انعدام شيء من مدى الرؤية .. ولكن الحقيقة التي واجهتنا هنا ، أن التأجيل مجدداً وعدم الوصول في هذا اليوم يعنيان اقتطاع يوم واحد من أصل يومين مُتاحين أمام الفريق الجوي للوصول والانخراط في التهيئة للمباراة النهائية ، فضلا عن خوض وحدة تدريبية رسمية مقررة في الملعب الذي كانت المباراة ستجرى عليه! هنا كان قرار رئيس البعثة الفريق العسكري ، بعد اتصالاته ومداولاته الطويلة مع الجهات المعنية في القاعدة وخارجها ، واضحا وحاسما وهو الصعود إلى الطائرة العسكرية .. لأبد من السفر بعد تلقي التطمينات الفنية والجوية الكافية ، على أمل أن نصل إلى العاصمة الطاجيكية بسلام لأداء المهمة على الوجه الأكمل!

بينما كنا نضع حقائبنا في الطائرة العسكرية وعلى مقاعدها الخشبية الجانبية ، أصرّ الصديق محمد العسكري أن أصحبه بالجلوس في قُمرة الطائرة ، جنبا إلى جنب مع الطاقم الذي يقودها والمؤلف من ثلاثة ضباط طيارين منحتنا ابتسامتهم الواثقة الصافية جرعات من الأمل والقوة ..

تحركت الطائرة بعد استحصال موافقة الدول التي سنمرّ في أجوائها . وبعد ترحال طويل هبطنا في مطار دوشنبه الدولي ، وقد تنفسنا الصعداء .. وهذا تعبير مخفّف كثيرا للمشاعر التي اجتاحتنا ويليق هنا استخدام عبارة (انتظار المجهول) ، فهذه هي المرة الثانية التي أسافر فيها بطائرة عسكرية .. كانت المرة الأولى عام 1987 حين ذهبنا إلى دبي قبل ساعات من مباراتنا مع الإمارات في تصفيات دورة سول الأولمبية ، تلك المباراة الشهيرة التي حسمناها بثلاثية ناطق هاشم وأحمد راضي وسعد قيس!

* * *

أنتم الصقور المهمة على خير وجه ، وعلى أكمل صورة ، وتفوقوا بهدف عماد محسن ، واحتفظوا باللقب لهم وللعراق .. كانت فرحة لا توصف ، فقد انبثقت من رحم المعاناة الطويلة التي عشناها خلال السفر ، والمخاطر الجمة التي كان



علي رياح ستاند آب للتقديم داخل الطائرة

يحملها مجرد مرور طائرة عسكرية في أجواء غربية ملتهبة ، بما ينطوي عليه ذلك من خطر داهم في أية لحظة! ثم بدأ الفصل الأكثر إثارة وخطورة في الرحلة كلها .. توجهنا إلى المطار ونحن نترسم طريق العودة إلى بغداد .. أكملنا ما يستوجب السفر بطائرة عسكرية من إجراءات إدارية ، ثم تحركت الطائرة على المدرج بينما كانت النفوس في غاية الارتياح تتوزع بهجتنا بين الاحتفاظ باللقب الآسيوي وانتزاعه من عقر دار الفريق الغريم ، وبين الشروع في حساب الزمن المتبقي للوصول إلى بغداد ..

كنت أرى في دعابات اللاعبين مع بعضهم ما يؤكد الشعور التام بالرضا ومعه ترقب الوصول إلى العاصمة بغداد على أحرّ من الجمر!

حلقت الطائرة وازدادت ارتفاعا وهي تشقّ مسارها في الآفاق .. وقد كنت اتخذت ذات مقعدي الخلفي في قمرة القيادة إلى جانب الفريق الركن محمد العسكري ، وهو المكان الذي يسمح لنا بمشاهدة كل ما يجري من حولنا ، كما أنه يتيح لنا إلقاء نظرة على الإجراءات التي يتخذها طاقم الطائرة العسكري من أجل القيام بالرحلة ..

ثم .. كان الخبر الذي وقع علينا وقوع الصاعقة : لا بدّ من العودة إلى المطار أو انتظار كارثة جوية ستقع للوفد برمته لا سمح الله!

تحركّ رئيس البعثة للسؤال عن أي خلل قد برز في عمل الطائرة بينما كان الطاقم أماننا يتبادل نظرات تشي بالقلق الذي ينتاب أي شخص مسؤول عن سلامة جمع كبير من الناس في رحلة طيران محفوفة بالمخاطر!

كان الخبر أن هنالك تسريبا هوائيا يتمّ عبر الباب الخلفية الكبيرة للطائرة .. التسريب يعني أن خلا في التوازن قد حصل وأنه قد يكبر في غضون دقائق ليصبح مميتا!

وصل الخبر سريعا من قمرة الطائرة إلى أماكن جلوس الوفد .. والصحيح أن الوفد كله كان يشعر بأن حدثا بالغ الخطورة يجري الآن ، وكان على رئيس الوفد محمد العسكري أن يتحرك بسرعة .. غادر قمرة القيادة ونزل عبر السلم الصغير إلى حيث يتواجد الجميع ، وكانت له كلمات مؤثرة وغاية في الروعة .. كلمات لا تصدر مطلقا إلا من رجل وقائد عسكري كبير يدرك حجم المخاطر ، ولكنه يُمسك بالموقف عمليا ومعنويا .. تحدّث إلى الجميع بلهجة واثقة مبينا تماما ما يجري ، لكنه حرص على طمأنة الجميع بأن طاقم القيادة يفعل كل ما في وسعه لتأمين أرواح الجميع بعون من الله تعالى ، مشددا على أننا سنخرج من هذا المأزق الخطير بسلام إذا كان الجميع يتصرّف بمسؤولية ويحرص على تطبيق ما يرشد به طاقم الطائرة..

في خضم هذا الموقف الذي تتسارع المشاهد والثواني فيه ، كان عليّ رصد ما يجري في كل زاوية من الحدث ، حتى ونحن في قلب الخطر .. كنت مع الزميل المصور محمد عامر العزاوي الذي أسهم معي في تغطية الرحلة بكل متاعبها وأفراحها ، نسجل بالصوت والصورة واللقاءات ما يجري ، بعدما تحرك الهاجس المهني لدينا ، فوقفْتُ في قمرة القيادة وسط الإشارات التي تضيء وتختفي للدلالة على الخلل ، كي أسجل وقوفي أمام الكاميرا التي دارت لي تنقل عني موقفا جلالا يحصل بينما الصورة توثق آنيا ..

في مثل هذا الموقف ، كان عليّ أن اتماسك تماما وأن أؤدي عملي ، وكنت حريصا على تسجيل الوقائع كما هي ، من دون أن اتخلص تماما من مخاوفي مما يجري!



خلال اللحظات العصيبة .. محمد العسكري يتحدث للاعبين داخل الطائرة

عدنا أدرجنا إلى المطار ، فكانت في انتظارنا مشكلة أخرى .. لم يتقبل المسؤولون عن مطار دوشنبه فكرة عودتنا والهبوط لديهم بعد المغادرة مهما كانت الأسباب .. لقد تمّ وداعنا وغادرننا والسلام!

لكن رئيس الوفد دخل في نقاش مع المسؤولين في المطار ، حاول خلاله أن يبيّن لهم أن خلا قد حصل ونحن على ارتفاع ثمانية عشر ألف قدم ، وأنه لا يمكن الاستمرار على النحو هذا ، فكان لابدّ من العودة لمعاينة الخلل ومحاولة إصلاحه!

كان الحل الوحيد المتاح أمامنا ، والذي عرضه المسؤولون عن المطار ، إن علينا أن ندفع أجور ضيافة وأرضية في المطار .. وهو موقف عجيب يصدر من سلطات بلد يحتضن فريقا زائرا لأداء مباراة نهائية آسيوية رسمية وليس بغرض السياحة! انتهت المفاوضات التي استمرت وقتا طويلا ، عند دفع جانب من المبلغ الباهظ الذي فرضه الطاجيك في تصرف لا ينم عن حسن الضيافة أو مراعاة الطرف القاهر ، فيما دخل طاقم الطائرة ومعاونوه ومعهم كل أفراد الفريق في مهمة إصلاح الخلل في الباب الخلفي الذي لم يكن إغلاقه تاما ، مما يسمح بتسلل الهواء وبالتالي فقدان التوازن!

أبدى أفراد الوفد جميعا روحا عالية في تقديم المساعدة ، وكانت إحدى وسائلنا على ما يبدو استخدام الحبال الغليظة لأحكام غلق الباب العملاقة ، لعل الله يكتب لنا طيارنا آمنا ونحن نمرّ عبر دول تاجكستان - كازاخستان - أفغانستان - إيران ، ثم الوصول إلى العراق!

* * *



إغفاءة الاطمئنان بعد إصلاح العطل والتوجه إلى بغداد



مخاطر السفر لم تحل بيننا وبين الابتسامة والفرح بالنصر الذي تحقق

من جديد .. دارت المحركات ، وعاد الجميع إلى مقاعدهم ، وتمسكنا بالأمل في أن المحاولة هذه المرة سيكتب لها النجاح .. كان طريق العودة الطويل ينتظرنا فوق بقعة ساخنة أو متفجرة من الأرض .. لكن مشيئة الباري كتبت لنا السلامة ، ومهدت كل سبيل أماننا للعودة إلى الديار محمّلين بفرح الوصول ، وقبله بغار الانتصار ، وبسعادة الاحتفاظ بالكأس الآسيوي!



الوصول إلى مطار دكا.. كانت المفاجآت في انتظارنا حتى موعد العودة

فوق جبال هماليا .. والسبب طيور مشاكسة !!

بفعل سرب من الطيور ابتلعه محرك الطائرة ، كاد منتخبنا الشباني يلقي مصيرا كارثيا لولا مشيئة الباري وحفظه! في عام 2000 ، توجهنا إلى العاصمة البنغالية دكا في رحلة طويلة ومُرهِقة ابتدأت بالطريق البري المُرهق الرابط بين بغداد والعاصمة الأردنية عمان ، وانتقالا في الجو إلى الدوحة ، ومنها عبر الطائرة الميمون إلى (الأرض المبتلة) وهذا هو بالضبط ما تعنيه كلمة بنغلاديش!

عند الوصول ، كان جمع من كبار المسؤولين في انتظارنا عند مدرج هبوط الطائرة وليس عند صالة الاستقبال المعتادة! احتفاء غير عادي بوفدنا ، وقد كان مفهوما تماما لي وللصديق النجم الكبير حسين سعيد رئيس الوفد وكل من كان معنا .. فقد كان المد السياسي العراقي يطغى على مفاصل الحياة في بنغلاديش .. مساعدات تقدم لهم من دون حساب .. شخصيات سياسية تُسَّحِّح بحمد العراق وكل ما يتصل بالعراق .. أما الزعامات الدينية فأمرها وخطابها وخطبها ، فيه تطرف شديد في (نصرة) العراق وهو يواجه الحصار الدولي .. وقد كانت عبارة (حصار دولي) سبوبة العيش ومفتاح الثراء لكل هذه الزعامات وغيرها في كثير من دول وأنظمة وأحزاب العالم ، لمجرد أنها تبتهل للسماء أن تنصرنا .. تنصر - بالطبع - اليد التي تبذل بسخاء لكل هؤلاء!!

* * *

بعد يوم واحد من الإقامة في دكا وسط اهتمام رسمي وشعبي جارف إلى جانب زعماء الأحزاب التي كانت تعيش على معونة العراق ، كان علينا أن ننتقل إلى مدينة راجشاهي الحدودية المُحاذية للهند ، وهذا يعني سفرا برياً على مدى خمس ساعات .. وكانت المفاجأة هناك .. فالمدينة موعلة في القدم والتخلف .. هي بالأحرى ليست سوى قرية كبيرة أسموها مدينة مع أنها لا تنطوي على أي مظهر من مظاهر أكثر المدن تخلفاً في العالم!

لماذا أصرت بنغلاديش على إقامة التصفيات التي شاركت فيها جزر المالديف والنيبال بالإضافة إلى العراق وبنغلاديش في هذه المدينة التي لم تكن تضم سوى مجمع سكني واحد احتزنا في تسميته .. هل هو فندق بالمعنى المتعارف عليه أم أنه دار سكني فسيح متعدد الغرف أم هو مجمع للإسكان على غرار مجمعات الطلبة عندنا؟!

لقد قررت الحكومة البنغالية احتضان هذه المدينة لمباريات التصفيات من باب رفع المعنويات فيها بعد أن تسببت كوارث السيول التي تنشط على مدار السنة في هدم آلاف الأكواخ المنتشرة في ربوعها الخضراء التي تحولت إلى مسطحات مائية!!

لم يكن لدينا خيار آخر بعد أن أسقط في أيدينا .. انتقلنا إلى غرفنا ، وهنا لابدّ من الإشارة إلى أن كل غرفة عبارة عن مرتع حقيقي لكل ما يخطر في البال من حشرات طائرة وأخرى زاحفة ، أما السرير فقد كان عبارة عن فراش مرتفع يحيط به ويغطيه القماش من كل صوب اتقاءً للزواحف والطوائر!

* * *

كانت مهمتي الأولى التي جئت من أجلها متابعة أخبار البطولة ومَدّ الصحف في العراق برسالة يومية أو ربما أكثر عند



في القسم الداخلي، عفوا الفندق أنا وحسين سعيد والمدرّب ثائر جسام

اللزوم لدى وجود عواجل طارئة أو أخبار مهمة لا تحتل التأخير ..

حاولت بمجرد الوصول أن أباشر عملي ، فاكشفت بأن ما أسمىناه فندقا لا يوفر أي لون من ألوان الاتصال الدولي .. أقصى ما يمكن أن تتطلع إليه هنا هو الاتصال بين غرفة وأخرى ، وستكون سعيدا جدا إذا دبت الحرارة في أوصال التليفونات داخل الفندق نفسه!

جلسنا أنا والصديق حسين سعيد للتداول في أمر هذه الصدمة التي ستجعل وفدنا معزولا تماما عن العالم ، فضلا عن أن رئيس الوفد في حاجة إلى التواصل مع الاتحاد العراقي في بغداد وتلقي التعليمات المعتادة من هناك بالإضافة إلى الإبلاغ بكل المستجدات الإدارية والتنظيمية ، وهذا واجب من صميم عمل رئيس أي وفد في حالة كهذه!



الريكشا وسيلة الانتقال في المدينة المعزولة

تركنا الفندق ، وحاولنا أن نلقي نظرة على المنطقة المحيطة به .. لم نجد محلا أو دكانا واحدا بالقرب منا .. كل ما يحيط بنا خضار على مَدّ البصر يخترقه طريق ضيق واحد يُوصل إلى (مركز المدينة) .. وكان لا بدّ أن أضع هذه العبارة بين قوسين ، فلاحقا سنعرف السبب .. لم تقع أعيننا هنا إلا على (الريكشا) في باحة الفندق ، وهي وسيلة التنقل الوحيدة هنا والتي لا تتاح الا للميسورين من أهل راجشاهي .. الريكشا هي عبارة عن دراجة هوائية ثلاثية العجلات تمّ تصميمها لكي تستوعب راكبا واحدا يجلس خلف السائق الذي يطلق العنان لرجليه فتدور العجلات لتوصلك إلى المكان الذي تشاء .. هذه (التاكسي) البنغالية تقطع في ساعتين ما تقطعه السيارة في عشر دقائق ، ولكن ما باليد حيلة ، فقد كنا أنا وحسين سعيد نبحث عن مكان يؤمن لنا الاتصال الهاتفي ببغداد!

أقلنا سائق الريكشا إلى مركز المدينة ، ولم يكن سوى مجموعة محدودة من الدكاكين الصغيرة التي تباع الخضار والقماش والمؤونة الحياتية اليومية ، ونحن سألنا عن أي مكان يمكن أن نجد فيه هاتفاً ، أشار أحد المارة إلى محل منزو كتبت في واجهته عبارة (اتصالات دولية) ، والحقيقة أنني وطوال أيام البطولة لم أر شخصاً آخر غربي داخل المحل! كان يتوجب علينا تزويل رقم العراق عشرات المرات كي يتأمن لنا الخط .. تكرر الموقف معنا كل يوم .. ننهض في الصباح ونذهب إلى المحل لنباشر عملنا من هناك!!

* * *

بدأت التحضيرات لانطلاق التصفيات في الملعب الجديد الذي تمّ بناؤه خصيصاً لهذه التصفيات .. لكن أكثر المواقف التي



حسان تركي وأركان نجيب وصحفيون بنغال يحيطون بي

عشتها هناك طرافة وبلاغة ، كان حين اختار المشرف على التصفيات وكان من سريلانكا ، عدداً من لاعبي كل منتخب من أجل الكشف عليهم ولو من حيث الشكل وذلك للحكم على أعمارهم!

كان معنا لدى الكشف أربعة لاعبين من منتخبنا الشباب ، وكان المشرف على التصفيات يسأل كلا منهم عن عمره وعن وظيفته ، وقد تمّ الاتفاق مع اللاعبين على ذكر سقف معين للعمر إلى جانب القول إنهم طلبة في الثانوية .. وحين مرّ أحد

لاعبينا أمام المشرف استوقفه الأخير وسأله : ما هي وظيفتك ؟

قال لاعبنا : أنا طالب ..

فردّ عليه المشرف : لا .. أنت مدرّس!

إشارة المشرف الذكية كانت في منتهى البلاغة ، وربما كانت هكذا أجوبته بخصوص لاعبي المنتخبات الأخرى ، ففي القارة الآسيوية كل شيء مباح!

أقيمت المباريات ولعبنا ثلاثا ، فزنا في اثنتين على النيبال وجزر المالديف وتعادلنا مع بنغلاديش .. أحرز منتخبنا (14) هدفا بينها (3) لنجمنا عماد محمد الذي توجّ هادفا للتصفيات (هذه المجموعة) بالإضافة إلى لقب أفضل لاعب فيها.. وكان التعادل في المباراة الأخيرة كافيا لتصعدنا المجموعة والانتقال إلى النهائيات التي أقيمت في شهر تشرين الثاني من العام ذاته في إيران ونلنا فيها اللقب عند جدارة..

* * *

أنجز منتخبنا الشباني المهمة في التصفيات على نحو مميز بالنظر لكل الظروف التي أحاطت بمشاركته ، وبعد أسبوعين من العناء والإرهاق ومواجهة مخاطر الأمراض والأوبئة من كل صنف ولون ، سلكنا طريق العودة إلى العاصمة دكا ، كي يتسنى المغادرة منها .. ولكن فصلا متعبا آخر كان في انتظارنا!

صعدنا إلى الطائرة العملاقة التي كان يفترض أنها ستقلنا إلى الدوحة في طريق العودة ، واتخذنا مقاعدنا وربطنا الأحزمة ، وأطلق كل منا آهة من سينال الراحة بعد المشقة ، وأفلتت من عقولنا خيالات عن كيفية الوصول السعيد إلى بغداد بعد إتمام المهمة .. ثم تحركت الطائرة لثوان ثم توقفت!

تبادلت الوجوه النظرات الحائرة ، هل نحن أمام مشكلة أخرى؟! بعد ساعتين من الانتظار المروع ، أعلن طاقم الطائرة أن المحرك قد ابتلع سربا من الطيور ، ولم يكن في الإمكان معالجة المشكلة بما يتيح لنا طيرانا طويلا آمنا!

هكذا عدنا إلى مربع المتاعب ، انشغلنا طويلا بامتعتنا ونقلتنا الحافلة هذه المرة إلى شيراتون دكا .. واحد من أروع ما رأته



مسؤول بنغالي (رفيع) يسلم لاعب منتخبنا الشباني



مع حسين سعيد لحظة بلحظة لمواجهة المشاكل

عيني من فنادق في العالم .. كان علينا أن نغضي ليلة أو ربما ليلتين في الفندق ريثما يتم تأمين طائرة بديلة ، وهكذا أمضينا ليلة لا صلة لها بمستنقعات راجشاهي ، حتى جاءت اللحظة التي نقلع فيها مجددا ، ولكن هذه المرة بعد تغيير المسار! لقد فرض سرب الطيور علينا ، بعد تبديل الرحلة ، أن نحلق فوق واحد من أهم معالم الأرض الجغرافية .. فوق جبال هملايا الخمسين في النيبال وتمتد عبر أربع دول أخرى هي باكستان والهند وبوتان والصين!

بالنسبة لي كان الأمر يستحق كل المعاناة ، فهنا على قمة جبل إيفرست (8800 مترا) يكمن سقف السماء الذي يحيط بواحد من أجزاء الأرض!

أنهن ما يمكن تلقيه من مكافأة للصبر في راجشاهي ، وللفوز بالتصفيات!



قبل شهر واحد كان فهد الأحمد في بغداد يتبادل الضحكات مع الجميع

جلسة طرب على وقع المعركة !!

جاءني الطلب واضحاً سريعاً بالتوجه إلى مقر الاتحاد الكويتي لكرة القدم ، وعليّ أن أجري حواراً واسعاً شاملاً مع الراحل الشيخ فهد الأحمد رئيس الاتحاد الكويتي لكرة القدم ، حول ما جرى في ملعب صباح السالم بالنادي العربي .. خلفية هذا الطلب تعود إلى مباراتنا مع الكويت في تصفيات سول عام 1987 والأحداث المثيرة المؤلمة التي أعقبتها ، بعد خسارتنا بهدف مقابل هدفين ، واشتباك عدد ليس قليلاً من اللاعبين مع قوة الأمن الكويتية التي كانت مكلفة بمتابعة المباراة .. كان مشهداً فيه نسج أقرب إلى الخيال!

في الوعاء الزمني الذي أجريت فيه هذه المباراة ، كانت علاقتنا مع الكويت قوية خصوصاً من الناحية السياسية المعلنة خلال حرب الخليج الأولى مع إيران .. وعلى المستوى الرياضي ، كانت العلاقة نموذجا يستحق الاقتداء بين الدول العربية ، لكن التنافس في كرة القدم اتخذ منذ مشاركتنا في خليجي أربعة في الدوحة عام 1976 منحى فيه الندية التي انفلتت عن سياق المعقول ، ودخلت في دروب وعرة ، وتدنت في يوم مباراتنا في تصفيات سول إلى حدود المعركة الشرسة التي تدخلت فيها قوات (حفظ) الأمن على نحو مُفرط في السوء ، وتورّط فيها نجوم ، وامتدت فيها أيدٍ لكي تضرب .. بسلاح أو بأي ما تمكنت اليد من الوصول إليه .. أو حتى بزجاجة ماء فارغة!

جاءني طلب الذهاب إلى مقر الاتحاد الكويتي في ساعة متأخرة من الليلة التي جرت فيها المباراة ، وكان يتوجب عليّ الانتظار حتى ظهر اليوم التالي كي انتقل من مقرنا في فندق هوليدي إن في منطقة الفروانية إلى منطقة العديلية حيث مقر الاتحاد ..

كنت بطبيعة الحال مهموما تماما بما جرى في المباراة وخسارتنا ، ثم بفداحة الثمن الذي تم دفعه في النزاع الذي جرى بين الأشقاء ، ولم تكن تشغلني كثيرا الطريقة التي سأواجه فيها محدثي ، وهو الراحل الشيخ فهد الأحمد .. فأنا أدرك أن هذا الرجل هو الأشد حبا للعراق وارتباطا به وقد كانت له مواقف شديدة الصراحة والقوة والدعم إلى جانب العراق في حرب الخليج الأولى .. وربما كان هذا هو المدخل الذي سيجعل حوارني معه متدفقا حتى بعد كل الذي جرى في الملعب من وقائع تدمي القلب قبل العين!

* * *

في مقر الاتحاد الكويتي لكرة القدم ، لم يكن أي موظف في العلاقات والإعلام على علم بزيارتي ، أو بالموعد الذي تم تحديده لي من بغداد بالاتفاق مع الشيخ فهد الأحمد .. هكذا افترضت ، حتى أن أقرب الزملاء الإعلاميين الكويتيين الذين يعلمون في مقر الاتحاد وبضمنهم الصحفي الأردني صالح أسعد مسؤول العلاقات والمكلف بترتيبات كهذه ، لم يكن على إطلاع بأي حوار سيجري في ظل الأجواء المحمومة المكهربة بعد الذي حدث في المباراة وما بعدها!

لهذا كان يتوجب علي أن انتظر دقائق في قسم العلاقات ريثما يتم الإذن لي بالدخول والبدء في حوارني مع ضيفي .. كانت هذه الدقائق حافلة بالنقاش الجدّي مع الموظفين حول ما جرى وما لم يكن ينبغي له أن يحدث ، وكنت حريصاً على أن احتفظ بهدوئي في هذا النقاش لمهمتي الأساسية التي جئت من أجلها!

وبعد ربع ساعة جاءني من يخبرني بأن الشيخ فهد ينتظر دخولي مع أنه في غاية الانشغال ولديه عدد من الضيوف الآخرين ، فكان المقترح أن أركز أفكاري وأسئلتي ، لأن الوقت غير مفتوح أمامي اتحكم فيه كيف أشاء!



فهد الأحمد مع حسين سعيد .. كل شيء عاب ما يرام قبل الموقعة وبعدها

بعد لحظات اكتشفت ما لم يكن يخطر في البال .. كان الشيخ فهد الأحمد يجلس متبسطاً مع ضيوفه على فراش وثير ممتد على الأرض وهو تقليد خليجي معروف في استقبال الضيوف بدلاً من الكراسي أو المقاعد الوثيرة .. استقبلني الرجل وقد تأرجحت مشاعره بين الترحيب بضيف عراقي لم يسبق أن التقاه وبين شيء من الغضب أو الزعل كان يستبد به جرأ ما حصل في المباراة ، لكن المفاجأة الحقيقية هنا كانت في وجود عدد من المعنيين بالأغنية الكويتية ، وقد كانوا في جلسة عمل .. رأيت الفنان الكبير عبد الكريم عبد القادر ، والملحنين أنور عبد الله وسليمان الملا ، والشاعر عبد اللطيف البناي وضيوفاً آخرين لم اتمكن من التعرف على هويتهم ، لكن الجلي هنا أن الجميع كان في



هزج ومرج كان الجميع متورطاً فيه

موعد (طرب) يجري فيه التداول بشأن أغنية أو أغنيات كتبها الشيخ فهد الأحمد الذي كان شاعراً مميزاً وقد غنى من أشعاره عدد من نجوم الأغنية الخليجية..

تفهم الشيخ فهد علامات الدهشة التي اعتلت رؤيتي لمجلس غنائي في مقر اتحاد كروي ، لكنه لم يتفهم بشكل كلي لماذا جئت إليه ؟ ماذا يمكن أن يفعل صحفي عراقي في مقر الاتحاد الكويتي بعد الأحداث المؤسفة التي شهدتها المباراة في اليوم السابق؟!

أدركت على الفور ما كان يجول في خاطر الشيخ ، فبادرته إلى القول : لقد تمّ الاتصال بي مساء أمس من المسؤولين في جريدتي وأعلموني بأن موعداً مفترضاً ينتظرني معك للحوار حول ما جرى في المباراة ، أو هكذا فهمت الطلب من بغداد؟!

دخل وجه الشيخ فهد في دوامة عاجلة من الحيرة والقلق والاستغراب ، قطعها جميعا بالقول : على كل حال أهلا وسهلا بك ، لكنني للأسف الشديد أصارحك بأنه لم يجر أي اتصال بيني وبين أي شخص في بغداد سواء حول المباراة فضلا عن هذا الموعد أو الحوار!

أدركت هنا أن المطلوب مني أن أدخل في محادثة صحفية (مباغتة) أشبه بتصفية صحفية للحساب مع رئيس الاتحاد الكويتي .. ازدددت قناعة بهذا حين تذكرت أن مدير التحرير عباس الجنابي أخبرني في الليلة السابقة بضرورة أن أذهب وحدي ولا اصطحب أي فرد عراقي آخر وأن يكون الحوار مُسجلا وليس مكتوبا ، وأن أرسله عبر السفارة العراقية إلى



عمو بابا.. كان حاضرا لدى نشوب المعركة

بغداد بمجرد الانتهاء منه ، ليكون تفريغ اللقاء في الصحيفة وليس من قبلي!!
تفهم الشيخ فهد الأحمد كل الموقف بكل امتداداته ، وقال مُشترطا : نجري اللقاء ولكن بعد أن ننتهي من عملنا - يقصد جلسة التداول مع المؤلفين والملحنين - ، وعندي سؤال مهم : هل لديك القدرة والصلاحيّة على نشر كل ما سأقوله لك؟! لم تصدر مني إجابة بالكلمات ، ولكن ما يبدو أنه ظهر على وجهي ما يوحي بأنني سأفعل ما في وسعي ، فأنا في الأصل أنفذ أمرا من بغداد ، وأن هنالك مسؤولين عن الصحيفة هم الذين يقررون كل شيء في نهاية الأمر!

* * *

وبدأت بتنفيذ الشرط الأول : الجلوس مع الضيوف مستمعا وربما مستمتعا ، فمن لا يهوى مجلس الطرب؟ - هكذا

افترض الشيخ فهد الأحمد ، بينما كنت أنا في واقع الأمر انتقلب على جمر النار انتظارا لانتهاه ما يجري لكي أشرع في تسجيل اللقاء وإرساله في أقرب موعد إلى بغداد!

في هذه الجلسة ، رأيت تجليات الصوت الجريح عبد الكريم عبد القادر ، وبراعة الملحنين سليمان الملا وأنور عبد الله وقدرة عبد اللطيف البتاي على تدفق الأفكار والعواطف أشعارا .. وكان الآخرون يتدخلون بين وقت وآخر لإبداء وجهة النظر حول تعديل في الكلام أو اللحن.. اتذكر أنني استمعت إلى أغنيات عدة كانت في طور الإنجاز بينها (بَسْكَ زعل) و(لو تكون إنته وكل الناس ضدي) و(ناديت) وأغنيات أخرى .. كان الجميع يؤدي ثم يتوقف ليتناقش ، بينما كنت أريد الانتهاء من كل هذه الجلسة برغم شغفي بما كان يتم أمام نظري وسمعي!

* * *

بعد ساعتين من الطرب انتظارا ، جاءني الزميل الإعلامي صالح أسعد الذي تحوّل بعد حرب الكويت إلى وكيل أعمال عدد من الفنانين العرب زاروا العراق فيما بعد وبينهم وليد توفيق ، ليطلب مني الانتقال إلى المكتب الرسمي الرئيس للشيخ فهد الأحمد ، لتبدأ (وصلة) أخرى مختلفة لا صلة لها بعذب الكلام أو شجيّ الألحان .. حين أدت جهاز التسجيل الصغير انطلقت أسئلتي مثل المدافع الرشاشة حول كل الأحداث التي جرت في المباراة ، انطلاقا من الانحياز السافر للحكم وصولا إلى تدخل القوات الأمنية الكويتية واعتدائها على لاعبيننا ، وإصابة عدد كبير من لاعبيننا وجمهورنا وحتى من حمل صفة الإعلاميين!



المطاردة في قلب الميدان في مباراة لن تمحى من الذاكرة



جانب من المباراة التي أسالت حبرا كثيرا

كان غرضي أن أوصل كل ما يمكن أن يدور في ذهن العراقيين الذين تابعوا المباراة وما أعقبها من أحداث وما تعرّض له منتخبنا من ظلم ، أما الشيخ فهد الاحمد ، فكان غرضه أكبر وأبعد بكثير .. لقد كان يتلقى السؤال مني ، ثم يجيب مطلقا العنان لأفكاره ولكلماته المليئة بالغضب مما جرى .. لقد كان يرى أن قناني المياه الفارغة التي أطلقها بعض اللاعبين نحو المقصورة سببا في تفجر الغضب لدى الجميع في الملعب!

تطوّر الحوار على نحو تخيلت فيه أن طرفيه قد أفلتا الزمام ، وأن العاطفة كانت طاغية .. حتى أن محدّثي وصل بالحوار إلى مستويات سياسية لم أكن أملك إزاءها سوى الإنصات ثم العودة إلى أسئلتي الكروية! كانت (مباراة) بين قناعاتي وتصوراته .. وكنت استرق نظرات سريعة إلى وجه الزميل الإعلامي صالح أسعد لأعرف ردود الفعل لديه .. كان يطالبني بتخفيف الحدة واللهجة من أجل استكمال ما جئت لأجله!

بعد خمسين دقيقة انتهى الحوار . بالنسبة لي كنت مقتنعا بأنني أديت واجبي المنوط بي من دون أن أدخل في سجال سياسي مع شخصية مهمة ولها مواقفها القومية المعهودة مثل الشيخ فهد الأحمد ، بينما كان الرجل يتحدث باندفاع شديد وبلهجة معاتبة ، مدركا أن شريط التسجيل سيصل إلى من يههم الأمر في العراق ، ليعرف أن ما حصل لن يسيء

إلى علاقة الكويت بالعراق!

* * *

أسرعت إلى تسليم شريط اللقاء إلى السفارة العراقية لتتولى - بطريقتها - إيصاله إلى الصحيفة أو إلى من يعنيه الأمر من المسؤولين في العراق .. بينما كنت مؤمناً تماماً بأنه لقاء لن يجد طريقه إلى النشر ، من فرط المكاشفة والصراحة التي كان عليها فهد الأحمد .. وقد كان!
تم الاستماع إلى الشريط وتمّ ضمه إلى المحفوظات بعد أن تم حجب الحوار عن النشر!



ثم جاء فهد الأحمد إلى بغداد عام 1989 وكان شيئاً لم يكن



هانوي .. البساطة والطيبة .. وكذلك الحذر من الأجنبي!

ممنوع من الدخول .. إلا بتأشيرتين !!

زرت فيتنام مرة واحدة قبل أربع عشرة سنة .. وحين اذكر تلك الرحلة اعترف بأن الدخول في تماس مباشر مع الحياة التي يتعاطاها الشعب الفيتنامي يعني، بالضرورة، ملامسة تلك الطباع والتقاليد التي تتأرجح بين ما هو قريب لنا حدّ تصوره ملتصقا بالهوية العربية، وبين ما هو غريب ويستدعي أن ترتفع المئات من علامات الاستفهام فوق رأسك. إنه عبارات مقتضبة وربما منصفة في الوقت عينه، شعب فيه الفطرة والبساطة والطيبة والتسامح ، لكن فيه أيضاً تلك الرأس (الناشفة) التي تذكرك بالكثير من شواهد و(مآثر) تزلزلت بعض مجتمعاتنا العربية، والتي نستشهد بها على الدوام سواء حين نتندّر أو حين نشيد بالطباع الصعبة!

ولكنني لم أكن أجهل مثل هذه الطبيعة من خلال المعرفة المسبقة .. فلقد اكتسب الشعب الفيتنامي حدّة الطبع ووضوح أي توجه أو قرار في التعامل مع الغريب الأجنبي ، من سلسلة من التجارب العصبية التي مرّ بها .. منها حرب تحرير البلاد من المغتصب المحتل الأمريكي .. منها ما كانت تراه القيادة الفيتنامية من تداع وتساقط للتركيبة الشيوعية في كثير من بقاع

العالم وحرصها على ألا تتراخى وألا تسقط هي الأخرى ، ومنها كذلك أن الأجنبي يبقى محط حيلة وحذر ، يتحولان إلى رقابة شديدة لكل ما يصدر منه منذ اللحظة التي يتقدم فيها بطلب تأشيرة الدخول إلى اللحظة التي يتخذ فيها مقعده في الطائرة التي ستحلّق به بعيدا عن فيتنام ، وعندها سيشعر هو بعودة نسائم الحرية إلى صدره وفكره ، وسيشعر الفيتناميون بأنهم تخلصوا من حاقّد أو عميل مستتر أو حتى جاسوس مرتبط بجهة خارجية متآمرة جاء إليهم ، ولا همّ له إلا إسقاط تجربتهم السياسية طويلة الأمد .. تجربة صمدت كثيرا ، ولا بدّ لها من مواصلة الصمود!

* * *

وقد وصلت إلى هذه القناعة في الكثير من المواقف التي عشتها على الأرض الفيتنامية، بأن هذا الشعب وبرغم كل ما يقال عن انفتاحه على الشرق والغرب بعد خمسة عقود على الانتهاء من تجربته التاريخية مع المحتل الأميركي، ما يزال ينظر إلى الغرب بطرف العين في الكثير من الأحيان .. ربما هو التوجس مما تخفيه بواطن هذا القادم من وراء الحدود للسياحة حيناً، ولأداء مهمة رسمية ولمدة محددة في الأحيان الأكثر.

الحديث عن الدوافع يبقى مقلقا للجهات الرسمية الفيتنامية وهي تتعامل مع طلب رسمي من أجنبي يريد زيارة البلاد ، وأعتقد أن من دخل بلداً كفيتنام يشاطرنى تلك الأحاسيس التي انتابتنى! أول الاحاسيس أنك تدخل إلى البلد بوحدة من تأشيري الدخول، فأنت إما أن تذهب إلى هانوي ولها تأشيرتها الخاصة، أو أنك تذهب إلى هوشي منه (اسمها الثاني هو سايجون) وهذه لها تأشيرة مختلفة لا تمكّنك من الذهاب إلى مطار مدينة أخرى مثل هانوي!!

هكذا قيل لنا من قبل أناس عديدين في مقدمتهم البروفيسور هوانغ فينه زيانغ نائب رئيس اللجنة الأولمبية الفيتنامية .. كان الرجل واضحا منذ البداية ، عليكم كفريق عمل تلفزيوني أن تحدّدوا وجهتكم تماما ، وقبل شهر على الأقل من موعد



حقوق الرزا الفسيحة .. مصدر اعتزاز وقوة للشعب الفيتنامي



المرأة الفيتنامية لها الريادة والقيادة في زراعة الرز

الدخول المفترض!

* قلت له : يا سيد زيانغ .. نحن لسنا سياسيين أو وفدا حزبيا .. نحن فريق عمل تلفزيوني مهمته إعداد برنامج عن تحضيراتكم للدورة الآسيوية التي ستقام في قطر عام 2006 .. فلماذا كل هذا التشدد في إجراءاتكم؟!

- أجبني بلسان لا يملك حلا آخر : هذه هي القوانين هنا ، وهي تنطبق عليكم كوفد إعلامي بالذات .. عليكم الاختيار بين هانوي وهوشي منه ، أو كلاهما ولكن بتأشيرتين مختلفتين من سلطتين محليتين؟!

* هل من حلول أخرى يمكن الالتجاء إليها؟!

- التخلي عن فكرة السفر تماما!!

حاولت مجددا عبر وسطاء في المجلس الأولمبي الآسيوي أن أجد حلا ، فلم أجد سوى المزيد من التصلب ، فكان أن اخترت هانوي ، والسبب أن النسبة الغالبة من المنتخبات الفيتنامية البارزة في الألعاب الفردية تتواجد فيها ، وهكذا كان الدخول إلى هناك!

وقد دفعنا ثمن ذلك تأخيراً في السفر واستبدالاً للتذاكر تبعاً لإبدال التأشيرة المتعلقة بوجهتنا المحددة، حتى لو كانت داخل فيتنام نفسها!

* * *

ورغم أن أي فرد فيتنامي، في الغالب، هو رمز إنساني مهذب القول حتى حين يكون متشددا في إجراءاته ، تراه ينحني كثيرا ويتسم أكثر وهو يبلغك بالقرارات الصعبة ، برغم ذلك فإنك حين تخوض في التفاصيل عند الطلب أو الشراء أو البيع أو تسهيل المهمة، لابد أن تشرح بالتفصيل كل المقاصد والمعاني وأن تكتب كل شيء ، وأن تعتصر ذاكرتك ثم تنفضها لكي تضع على لسانك أو على الورق ما قد تراه أمراً غير ذي قيمة، لكنك تكتشف بعد حين أن (مُستعظم النار من مُستصغر الشرر) ، فلا بد من التفاصيل، ولا بد من أن تفكر في صوت عال.

وعندما يتسلل الغضب إلى نفسك حين ينفذ أهل فيتنام ذاكرتك بأسئلتهم التي تغطي كل المسموح والممنوع ، عليك أن

تتذكر عبارة (اشربْ العصير) وهي اللازمة الرائعة التي يتعامل بها المقدم التلفزيوني المصري محمود سعد مع ضيوفه حين يرفع حرارتهم بأسئلته الكاسحة ثم يقول للضيف (الله .. انتة اتعبت؟.. طب اشرب العصير!) كنا في المطعم نتناول الفطور حين أقبلت الفتاة المسؤولة عن تأمين طلبات الطعام ، وبعد انحناءات امتدت لأمتار عدة تعبيراً عن احترام الضيف أو الغريب، وهي صفة عامة تطبع الحياة في الشرق الآسيوي، طلبتُ أن أتناول قدحاً من الماء غير المُبرّد.

ومع وجبة جديدة من الانحناءات التي ينبغي أن تقابلها أنت بكل مظاهر الشكر والامتنان وكثير جداً من الانحناءات ، اختفت الفتاة، وبعد دقيقة عادت ومعها الماء الساخن الذي ربما تصل حرارته إلى ستين مئوية ، فاستفهمت عن سر هذا الماء، فردّت البنت مع عاصفة جديدة من الانحناءات وقالت: أنت قلت ماء غير مبرّد! فأجبت : ولكني لم أقل إنني أريده مغلياً!

استدارت البنت وعلى وجهها ابتسامة ، نحو المطبخ بسرعة شديدة وعادت لي بالماء، وكان هذه المرة عبارة عن مكعبات الثلج مضافاً إليها شيء من الماء، وصبّت "الثلج" في القدح وكأنها كانت تقول (هنيئاً مريئاً).

واعترضت للمرة الثانية لأنني لم أطلب الماء الساخن أو المثلج بل ماءً عادياً.. عندها وجدت الفتاة المُحمّرة خجلاً أن الحل الأخير والحاسم هو أن تفتح صندوقاً جديداً كبيراً من قناني الماء المغلقة، لتقول لي مع سيل عرم من الانحناءات: هاك



البيتانك رياضة شعبية موروثة من الاحتلال الفرنسي



حقول الرز أجمل ما يمكن أن تراه عين في فيتنام

صندوق قناني الماء وهو مغلق .. افتحه وتصرف بها على النحو الذي تشاء!
نعم .. هذا فاصل واحد يجبرك على أن تخوض في التفاصيل .. في كل شيء!

* * *

في مدينة هانوي لعبت (بيتانك) من باب الفضول .. وفزت بالصدفة!

بيتانك هي رياضة رمي الكرات الحديدية وأصلها فرنسي ويقال إسباني أيضا ، وتجري المباراة على أرض ترابية أو رملية بين فريقين يتألف كل منهما من لاعبين أو ثلاثة لاعبين .. يقف اللاعب وسط دائرة لا يزيد قطرها عن الأربعين سنتيمترا ثم يقوم برمي ثلاث كرات حديدية نحو كرة خشبية أصغر حجما وتبعد عنه بمسافة عشرة أمتار .

نتيجة المباراة تكون بحساب قرب الكرات الحديدية لكل لاعب من الكرة الخشبية .. وبالصدفة لا أكثر رميت إحدى كراتي وإذا بها تصيب الكرة الخشبية وتقذف بها بعيدا ، وقد أخبرني اللاعبون الفيتناميون بأن هذا أمر نادر الحدوث وبه تحسم المباراة! ولا حاجة للاستمرار فيها!

نعم إنها الصدفة والدليل أنني عدت إلى الشاطئ في اليوم التالي مزهوا بنجاح الأمس ، فلم أحصد سوى الخسارة واحتلالي الترتيب السادس بين ستة لاعبين!

* * *

في فيتنام تجد في كل مكان الحكمة البليغة .. على لسان غير مثقف أو فاته قطار التعليم!

قالت لي المزارعة الفيتنامية البسيطة في أحد حقول مدينة هانوي الشاسعة : ما يساويه الشيء في حياتنا اليومية هو المهم وليست العبرة في قيمته في السوق .. وما تراه هنا أصدق مثل على ذلك وهو الرز .. إنه رخيص الثمن ، لكنه عندنا يوضع

في مكان استراتيجي نباهي به شعوب الأرض!

مشيت ساعات بين الحقول وأنا أصور برنامجي عن فيتنام بجوانبها الرياضية والاقتصادية والاجتماعية .. وكان معي الصديقان الرائعان المصور المصري حسام المداح والمخرج القطري فهد السهلي .. وكلما رأيت بعد ذلك شعبا يفاخر بما



لابد من قبعة الخوص للدخول في فيتنام

يساويه مُنجز أو عالم أو بضاعة استراتيجية أدركت لماذا يجري الآخرون من حولنا نحو هدف مرسوم في الأفق بينما تتراجع خطواتنا - بثبات - إلى الخلف!

الرز في فيتنام .. أكثر من حصول زراعي .. إنه سلاح استراتيجي فعّال ، تتجلى قيمته في تأمين الغذاء الأساسي لما يقرب من مائة مليون مواطن ، طبقا لبعض الإحصاءات السكانية القريبة ، فضلا عن تصديره لدول كثيرة في العالم لا يطب لها إلا طعم الرز الفيتنامي.. وفي أية زاوية من فيتنام يزرع الرز وتفيض المياه انتظارا للحصاد .. أما الخط الأحمر الذي لا يمكن المساس به أو تخطّيه ، فهو ترك أية بقعة صالحة للزراعة من دون استثمارها لتفعيل هذا السلاح ، أو لجعله في قمة الجهوزية!

* * *

لقد طوّرت فيتنام اقتصادها ، لأنها تخلت عن الفكرة القديمة التي تقول إن الأرض بما عليها هي ملك للدولة .. وكانت بذلك لا تتيح للمزارع أن يحقق فائدة تتناسب مع قيمة جهده .. كانت الدولة من قبل تتسلم الرز وتتصرف به ، وتعطي بعضه إلى المزارع وبها يسد حاجته أو رmqه ، لا أكثر من ذلك!

أما اليوم ، وفي ظل خروج فيتنام من الفكرة الاشتراكية القديمة المتزمته ، فإن الأرض ملك لمن يزرعها ، وهو الذي يستفيد من مردودها شريطة أن يقوم ببيع أطنان الرز إلى الدولة ، والفائدة هنا تتزايد كلما زاد المحصول!

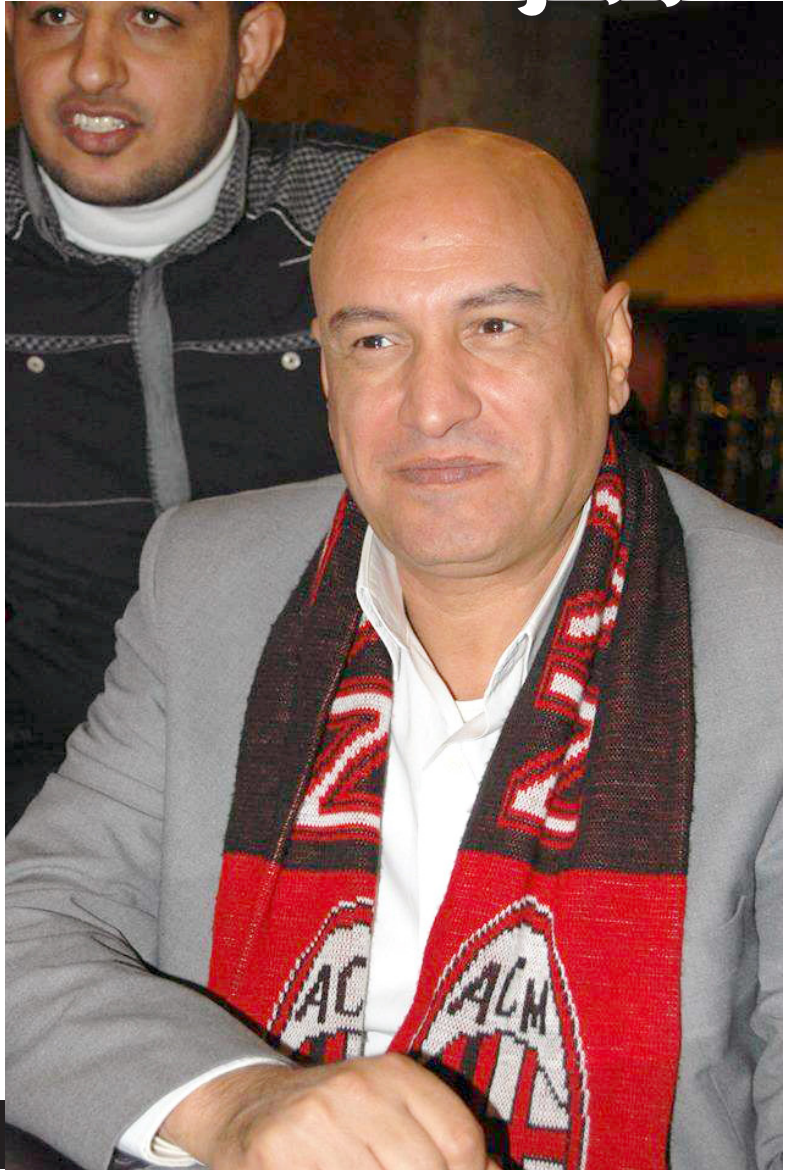
هكذا حققت فيتنام نهضة اقتصادية عجيبة خلال السنوات العشرين الأخيرة ، فبجانب أن سبعين بالمائة من القوى العاملة

تعمل في حقول الرز الواسعة وتعزز الحضور الاقتصادي المميز للدولة على مستوى العالم ، فإنها فتحت مجال الاستثمار أمام شركات أجنبية محددة بينها كوريا الجنوبية على وجه التخصيص ، فتوسّعت دائرة الصناعة الفيتنامية بالاستثمار الأجنبي .. ثم جاء التحول حين تعلّم الفيتناميون الدرس وصاروا يتولّون بأنفسهم صناعة ما جاء به الكوريون على سبيل التقليد! والحكمة السائدة هنا تقول : ما المانع من أن نقلد الصناعة الكورية ، ما دامت هذه الصناعة - في الأصل - قائمة على تقليد المنتج الياباني!!



حقول موكانغ تشاي الأشهر في زراعة الرز على مستوى العالم

حين تطائر الرداذ الكلامي .. كنت أنا الضحية !!



الميلان .. الصورة الحقيقية بعيدا عما جرى في الملعب

برباطة جأش نادرة ، وبعزيمة لا تلين ، اتخذ جمهور يوفنتوس قراره (التاريخي) واعتبرني جزءا لا يتجزأ من الأسباب التي أوقعت (السيدة العجوز) في براثن الخسارة أمام نابولي من نقطة الجزاء! ولأن (قرارات) كهذه لها أرضية ونذر ومقدمات ، فإن الحكاية بدأت من أرض المطار وليس أرض الملعب .. حيث اكتشفت بمجرد الوصول إلى الدوحة هول المشهد الجماهيري ، وقد كان متشحا بالأبيض والأسود لوني فريق يوفنتوس العظيم! هتافات على أغنيات على أهazيج .. لقد كانت زفة عرس ، ولم أكن أعرف هوية العريس الذي انطلق حفل زفافه في المطار حيث ينبغي أن ينضبط الجميع وهو يلامس أرضا غريبة عليه أن يتصف فيها بشيء من الهدوء ، ولا أقول شيئا من الأدب!

لم أملك صبرا لأمنع نفسي من اقتحام هذا المشهد الذي كان خليطا من جنسيات مختلفة اتخذت شكل العوائل القادمة من أوروبا بطواقمها الكاملة ، ففيها الأب والأم والجدة والحفيد.. كان الجميع يريد إنهاء إجراءات السفر بأقصى سرعة ممكنة .. كان كل منهم على موعد مع القدر .. هكذا تصورت!

* * *

وعرفت حين حشرت نفسي في قلب الجميع قبل وقت قصير من بداية مباراة يوفنتوس مع نابولي سر هذا المد الجماهيري الجارف الذي يحتضن القطب الكروي الإيطالي الشهير ، وأدركت أن مدينة تورينو التي ينتسب إليها يوفنتوس قد فرغت أو أفرغت من كل عاشق كروي فيها .. تخيلت أن المدينة العريقة قد جاءت بشبيها وشبابها وكانت تسابق الزمن من أجل الوصول إلى الملعب تحت أي ظرف كان ، فنحن في السادسة والنصف مساء ولم يتبق سوى ساعتين وينطلق اللقاء الناري مع نابولي قطب الجنوب الكبير!

وبين القطبين الإيطاليين ما صنع الحداد كما يقال .. جملة من الثارات القديمة والحديثة التي يصعب حصرها ، لكن كل متيم بفريق يجد - في العادة - متعة في أن يتحدث عنها من باب التسخين قبل حضور مباراة القمة على الأرض القطرية! دقائق الانتظار ملأتها بتحريك كل حواسي كي استوعب المشهد وأدقق في الوجوه وأحاول فهم المغزى من حوارات صاحبة في جمل قاطعة حادة كأنها تجري على قارعة الطريق .. حوارات جانبية مع كل لون وصنف بين الجمهور الإيطالي الذي ينتسب إلى مناخ لا يختلف كثيرا عن أية (لمة) عراقية في مناسبة كهذه .. فأصوات الطليان لدى التحاور عالية وتمتد في أفق المكان حتى لو كان الكلام همسا!



أروبي لإبطقة الميلاق ففب العراق ما جرب ففب ملعب السد

إنهم في جدل وشجار .. هكذا يبدو عليهم ، لكنهم في واقع الأمر يتحاورون بود وفي منتهى الوداعة وحسن النية .. لهذا لم يكن هذا المناخ غريبا ، فالكل يتحدث عما سيفعله بيرلو وتيفيز وبوفون وكيليني وبوغبا وفيدال وبونوتشي ومعهم قائدهم اليغري!

الكل يتحدث بها هو مقتنع فيه أو به .. لاحظت تماما أن هنالك تقاطعا في الأصوات .. فالكل لديه السنة وحناجر ، ويملك الأيدي التي يشوح بها ذات اليمين وذات الشمال لتجسيد كلامه ، والقليل منهم لديه الآذان لكي يستمع وسط هذا الصخب! هذا مشهد أعرفه جيدا هنا في بلدي .. لكن ما علينا!

* * *

تشجعت تماما بسبب هذه الحوارات الممتعة التي تتقطع بها الأنفاس .. وقلت لنفسي : هنا كانت البداية فقط ولا يعلم



جنون جمهور اليوفي .. مضرب الامثال

إلا الله وحده كيف ستنتهي هذه الحوارات في الملعب بين جموع المشجعين الذين بدا وكأن أحدهم جاء ليفوز مهما يكن الثمن ، فإذا لم يكن الفوز ، فلا بدّ والحال هذه من فراق الحياة!

وذهبت مع قوافل الجمهور الإيطالي من المطار مباشرة حتى ملعب السد .. لقد وجدت طريقي سهلة إلى مرافقتهم في الحافلة الكبيرة ، فمن واقع حواراتي معهم في المطار ، تصورا أنني متعاطف معهم وأعيش همومهم وتطلعاتهم في هذا اليوم وكل يوم .. تصورا أنني أحمل (قضيتهم) وأدافع عنها ، بينما لم أكن أرد عليهم إلا بهزات من رأسي تعبيرا عن فهم واستيعاب ما يجري بينهم .. ولم يكن الأمر كذلك طبعاً!

وبدافع الفضول واستثمار حلاوة المناسبة ملازمة تفصيلات الكرة من على المدرجات جلست وسط جمهور اليوفي .. دخلت بصفتي الصحفية وتسلفت إلى مدرجات الجماهير المتشحة بالألوان التقليدية ، لأرى ما يمكن أن تنتهي إليه هذه القصة ، وكيف ستكون ردود الفعل في الحالين : الفوز أو الخسارة!

كل شيء كان يحيط بي يحمل اللونين الأسود والأبيض . كأن الجمهور كان يقول للاعبيه : ليست هنالك منطقة رمادية في مباراة اليوم . يا أبيض يا أسود . ويا ويلنا وويلكم إذا خسرنا مباراة السوبر!

* * *

دارت عجلة المباراة وساد صمت قصير صفوف المشجعين ، ثم سرعان ما انطلقت الأغنيات والأهازيج ، فلقد جدّ الجد ، وبدأت المطحنة الإيطالية على الأرض القطرية! مع توالي المباراة كنت أرى فصول السنة الأربعة تتجسد على معظم مدرجات الملعب والتي احتلها جمهور السيدة العجوز



مع سيدورف النجم التاريخي للميلان

بروح الانتصار والتي اعتاد عليها خصوصا في المواسم الأخيرة في استرداد رائع لتاريخه المجيد . كانت تقلبات المباراة تظهر في لمح البصر على الوجوه ، وهذا بالضبط ما كان يهمني أو يشغلني من باب الاطلاع أو الفضول! وعندما تقدم اليوفي بهدفه الثاني خلال الحصة الإضافية ، كشف أحد الزملاء الإعلاميين الخليجيين أوراقى أمام جمهور اليوفي .. وليته لم يفعل!

قال لهم : يا سادة يا كرام .. نسيت أن أقول لكم إن هذا الزميل الذي يرافقكم ويحاوركم منذ ثلاث ساعات ، عدو لدود لليوفي . إنه باختصار يعشق غريمه التاريخي الميلان .. كيف ترتضون لنفسكم مثل هذا الخرق .. كيف انطلت عليكم هذه الخدعة من المطار وحتى المدرجات?!

رأيت بعد ذلك أن عشرات العيون كانت تهرق وتتوعد .. التعابير خرجت من القلوب وصارت مرسومة على الوجوه . وأحمد الله أن اليوفي كان متقدما بهدفين لهدف ، حين قررت الانسحاب في هدوء لأجد لي مقعدا بعيدا عن جمهوره المتعصب .. وكنت موفقا تماما في التوقيت ، فبعد أن انسحبت خشية ما لا تحدث عقباه هيا الله لفريق نابولي هيغواين مجددا ليحرز له هدف التعادل الثاني القاتل ، لتنتقل بعدها المباراة إلى القصة المعروفة .. قصة ركلات الجزاء التي أطاحت آمال كل يوفنتيني في الملعب وفي كل أرجاء الدنيا!

* * *

عند الخروج من الملعب ، كان في انتظاري الفصل الأكثر إثارة ! عدد من جمهور اليوفي ممن قابلتهم في المطار ورافقهم إلى الملعب وقد توهّموا أنني مثلهم متعصب للسيد العجوز .. اكتشفوا مكاني في منطقة المشجعين بينما كنت أهم في مغادرة الملعب مسرعا .. توجه الكثيرون نحوي وقد علت وجوههم كل أمارات الغضب والسخط والنقمة ، فأجزلوا لي العطاء من المفردات الإيطالية القاسية .. نيميكو (عدو) .. اينغانيفولي (مخادع) .. تراديتوري (خائن) .. فقد كانوا يتصوّرون في البدء أنني أحب اليوفي لمجرد أنني كانت مُندسا بينهم أشاركهم الحوار وأجلس معهم!

ولا أنسى أبدا نصيب المسكين أليغري مدرب اليوفي بعد المباراة .. إذ وصفه الجميع بكلمة (بريدينتي) أي فاشل ، وذلك بضمن ما وصلني من رذاذ كلامي طائش .. أما مناسبة إيصال الشتيمة إلى مدربهم عن طريقي ، فهذا أمر غير مفهوم إلا للطلّيان . فقد كان اليغري من قبل مدربا للميلان ، وما أنني أحب الروسونيري فإن ردود الأفعال لم تكن لتمرّ إلا عن طريقي!



علاقتي بجمهور الميلان صميمية ولها ألف دليل !



الحدث تطاردك في كل مكان من الصين

عرفتُ الكورونا .. قبل 21 سنة !

(أي سر فيك؟) .. أفلتتُ العبارة من لساني وأنا أصاب بالافتتان مرة أخرى من هذا الشعب الذي اجتاز تعداده خلال تلك زيارتي الثالثة له (2008) مليار نسمة ، ولم ينقص العداد المتسارع قيد أملة من تعلقه بالحياة! وفي كل مرة اتخيل أنني عثرت على (السري) .. هذه المرة تأكد لي أن للصينيين مزاجا في كل شيء ولكل شيء .. شعب لديه القدرة على الابتكار والتطويع .. كلما ازداد مليوننا في غضون أسبوعين ، ازداد إقباله على الحياة ، فهو ينتج مما يمكن أن نتخيله كارثة سكانية ، مناخا للتنوع في الأفكار!

* * *

تحتفظ أمستردام الهولندية بميزة أنها مدينة الورد في العالم ، وأن فيها أنواعا وأصنافا من الورد والزهور لا يمكن حصرها في حيّز ضيق ، لكن لورود مدينة غوانجو التي تربض على التخوم الجنوبية من التين الصيني معنى مختلفا .. فعندما تطأ قدماك أرض مطار المدينة ثم ترسل بنظرك إلى ما وراء زجاج النوافذ الواسعة ، لا تجد غير (مروج) الورد في انتظارك!

ليس غريبا على الصينيين الذين دوخوا العالم بأفكارهم التي تستند إلى ابتكارات الأمم الأخرى ، أن يجعلوا من باقات

الورود الكبرى بشتى صنوفها وألوانها وشذاها ، التعبير المناسب للترحيب بالضيف القادم من أنحاء العالم ليشهد كلا أو بعضا مما تنتجه هذه البلاد من معجزات صناعية وعمرانية .. وبشرية!

هذه المرة أضاف أهل الصين إلى المساحات المديدة المفروشة بالورد ، مُجسّمات رياضية كبرى من الورد نفسه .. هذه المُجسّمات تمتد على جانبي الطريق الذي يأخذك من المطار إلى قلب المدينة المزدهمة على مدى يزيد عن الساعة الواحدة من الزمن!

أنت ترى لاعب الكرة وهو يصبو الساحرة المستديرة لكن على شكل نصب شاهق (مبني) من الورد ، وقد وضعت مفردة (مبني) بين قوسين للدلالة على أن ما تشاهده ليس نصبا أو تمثالا أسوة بما نعرفه في العادة ، ولكن لأن ما تراه ليس سوى ورد منسق يخلب اللب!

خلال ساعات الصباح الأولى تنتقل آليات ضخمة وأخرى صغيرة إلى جوانب الشوارع الرئيسة وعمق الساحات الكبرى ، ومهمتها واحدة : الحفاظ على نضارة هذه التوليفات العملاقة الواسعة من الورد والزهور ..

هنالك طرق ووسائل شتى ابتكرتها العقلية الصينية لأداء هذه المهمة ، فلا يترك المهندسون والعاملون أية فرصة من التأخير أو الإبطاء أمام ناظرين كي يعثرا على كوم متهاك من النباتات الذابلة ، بل على العكس تماما .. أنت ترى كل النصب وقد حافظت على صورتها الطازجة التي تشع ألقا!

سألت المنسق الصيني الذي يرافقنا والذي يتقن العربية كما يتقن الشاعر المتنبّي صناعة الصواريخ ، عن الفكرة من



السور العظيم إحدى معجزات الحضارة الصينية عبر الازمنة



ووهان قبل جائحة كورونا.. ابتسامة كانت تخفي عذابا طويلا

وراء هذه التقليدية المبتكرة التي تنسيك ما حولك ومن حولك من مظاهر حياتية ، فقال إن السر يعرفه أهل مدينة غوانجو والذين يدينون بالشكر لمن يحط الرحال عندهم بعد أن تحوّلت المدينة إلى موقع دائم لأبرز الأحداث الرياضية العالمية ، فقررُوا أن يقدموا الشكر على هذا النحو المدهش الذي يعيدنا إلى صوت أسمهان الشجي وهي تصدح مثل طير رنّان : (يا بدع الورد يا جمال الورد)!

* * *

هذه صورة تهيمن على ذاكرتي منذ اثنتي عشرة سنة ، قبل أن يقلب وباء أو فايروس أو (مؤامرة) كورونا كل المعطيات والحسابات ويتسبّب في قلب مظاهر الحياة على وجه الأرض فيُمنع في إبادة الناس في الصين وغيرها .. في كل يوم تغادر قافلة كبيرة من بني البشر هذه الدنيا تشكي عجز فتوحات الطب عن إيجاد مَصْد واحد يوقف هذا الزحف الدامي الذي لا يعلم إلا الله وحده إلى أين سيصل ، وكيف سيتوقف؟! رأينا في الأيام الأولى لتمدد هذه الجائحة مقاطعة (هوي) وعاصمتها ووهان وهي تدفع الثمن الأولي والأفدح في هذه الإبادة .. وكلما تواترت أخبار الحصاد البشري المفجع ، عادت بي ذاكرتي إلى تفصيلات المباراة الوحيدة التي خاضها فريق كروي عراقي في مقاطعة هوي ، وفي مدينة ووهان بالذات!

في شهر نيسان من عام 1999 وبينما كان الحصار يُضَيّق كل فسحة ممكنة من المشهد الحيّاتي في العراق ، كان عليّ



في شنغهاي كانت عذابات الطعام تواجه منتخبنا الاولمبي

أن أرافق المنتخب الأولمبي العراقي في رحلة إلى الصين .. رحلة الوصول وحدها استوجبت ثلاثة أيام كاملة بين بغداد والمدينة الصينية الفارحة شنغهاي ، مروراً بعمان (برا) ثم الدوحة وأبو ظبي وبانكوك على الطائر الميمون! وصلنا إلى شنغهاي ، وكانت في انتظارنا السيول ، وقد خسرنا المباراة الودية الأولى أمام الأولمبي الصيني بثلاثة أهداف دون رد بعد أن واجه فريقنا طرفاً قاهراً لا يمكن تخيله فضلاً عن احتماله .. وكان جدول الزيارة يضم مباراة ودية أخرى مع منتخب مقاطعة هوي في قلب (ووهان) حاضنة كورونا في بدء الكارثة ، ومُصدّرتة التعسة إلى البشرية كلها! قبل إحدى وعشرين سنة لم يكن أحد قد سمع بالوباء ، أي وباء .. بدت المدينة هادئة هائلة نظيفة منتظمة الإيقاع ، لكننا حين دخلنا إلى الملعب قوبلنا بعاصفة هوجاء من الهتاف الذي لم أكن - بالطبع - أفهم معناه ، وكان موقف الصديق المدرب نزار أشرف مماثلاً وكذلك الحال بالنسبة لرئيس الوفد الأخ بشار هشام وسائر الوفد .. لكنني رأيت حرجاً على وجه (إي إي وو) المترجم الصيني الذي كان يرافق منتخبنا وقد كان يحمل شهادة الماجستير في أحد موضوعات اللغة العربية ، من جامعة الأزهر بالقاهرة!

لم يترجم لنا السيد (وو) عبارات الجماهير والتي كانت تبدو ساخطة على غير العادة .. ساخطة على أي شيء؟ لست أدري .. لكنني فهمت منها أنها تطالب بإطاحة منتخب العراق ، واعتقد أن المشهد كله لم يكن يوحي فقط بالتعصب الكروي المعروف في كل بقاع الدنيا!

خضنا المباراة بفريق رائع كان يضم عدداً من أهم اللاعبين : كاظم حسين ، حيدر عبيد ، هيثم كاظم ، زياد طارق ، رياض مزهر ، هادي جابر ، أحمد حسين ، هاشم رضا ، عباس حسن وغيرهم .. والمفارقة هنا أن المدرب نزار أشرف ومساعدته كريم محمد علاوي فوجئا قبل يوم المباراة بارتفاع حرارة اللاعب المحوري المهم رياض مزهر ، فتركاه له تماماً

حرية المشاركة في المباراة أو الراحة ، لكنه رفض تماما البقاء في الفندق وقال إنه جاهز لخوض المباراة ..
تشاء المقادير أن يكون رياض مزهر صاحب هدف الفوز الوحيد لنا في تلك المباراة ، بعد أن أهدرنا أربعة أهداف
محقة ، فانقلبت الصورة على المدرجات تماما على المدرجات ، إذ أحاط الآلاف بمنتهينا مهللين ومهنيين .. لا أدري ما
السر في هذا الانقلاب ، إلى درجة أن المشجعين جمعوا كل المزامير التي كانوا يصدحون بها في المدرجات وقدموها في
أكياس كبيرة هدية إلى لاعبينا!

حين أبرقت بتفاصيل تلك المباراة من ووهان (المدينة المنكوبة اليوم) في مقاطعة هوي ، كان هنالك في مقر اتحاد الكرة
من يتندّر على شكل المباراة ويسخر من اسم الفريق قائلا : نخسر مع منتخب الصين ثم نلجأ إلى (هوي) وجماعته
لتشكيل فريق أي كلام وخوض مباراة التعويض لتحسين الصورة!
كانت سخرية مريرة إذا علمنا أن كلمة (هوي) في الجملة الأخيرة جاءت دلالة على اسم الإداري المميز هوي الذي كان
يعمل ساعيا في مقر الاتحاد .. بينما لم تفهم التعليقات الساخرة في وقتها أن هوي مقاطعة صينية في غاية الأهمية
كرويا واقتصاديا!!

إنه الجهل المطبق بالجغرافيا .. وبالتاريخ والاقتصاد أيضا!

* * *

في الصين ، وفي كل مكان من هذه الدنيا .. الطبع يغلب التطبع ، على الأقل حين يتعلق الأمر بغذاء المرء ، وتحديدًا من
ينتسب إلى بيئة إسلامية ، ويضطر إلى العيش في بلاد غريبة ، ولو في وعاء زماني أمده عشرة أيام لا أكثر!



علي رباح مع كريم محمد علاوي ونزار أشرف وكاظم ناصر في معقل كورونا !!

فقد اعتدنا ، في الماضي ، أن تعود وفودنا الرياضية ، يحمل معظمها مَرَّ الشكوى من الطعام .. ماهيته .. طريقة إعداده .. والأضرار الكامنة - التي نتخيلها - وراء كل أكلة .. أقلب الآن في الذاكرة وأنبش أوراق ما مضى ، لأتوقف عند أغرب مانشيت رياضي - غذائي ظهر في صحيفة صينية قبل 21 سنة .. يوم تأكدت أن ما يتم اكتسابه في سهولة وعبر مدة طويلة لا يمكن فقدانه أو التخلي عنه إلا بصعوبة وعبر مدة أطول!

في شنغهاي .. أجمل مدن الصين وأكثرها حضورا وانفتاحا ونسجا على جديلة العالم متسارع النمو ، كانت المعاناة الشديدة لوفد المنتخب الاولمبي العراقي تتلخص في قبول أو تقبل الوجبات الغذائية التي كانت تقدم لنا .. كان الخوف مهيمننا ، والهواجس في أوج الانتقاد ، والكل يربع الجميع .. والسبب معروف حتما وهو نوعية اللحوم المقدمة أو في أحسن الأحوال طريقة ذبحها!

كان الصينيون في فندق (سيلك رود) أو طريق الحرير ، يقدمون الطعام في غاية الأدب بعد أن يحسنوا تزويقه للترغيب فيه .. لكن العضلة أننا لم نكن نعرف شيئا عن (هوية) ما نتناوله ، ومضغه ، ونبتلعه .. فماذا فعلنا؟!

في أدب مماثل مقابل ، اقترحنا أن يتولى لاعب من لاعبيننا (وقد اقترحت أنا لاعب الوسط كاظم حسين نجم النجف السابق) عملية الذبح في المطبخ حتى نتوثق تماما من أن أصدقاءنا الصينيين لا يعدّون الطعام بطريقة (ملص) الرأس باليد من باب الرفق بالحيوان .. لكن كادر المطعم أحنى الرؤوس احتراما ، وأجاب برفض قاطع ، لأن في طلبنا إهانة لا تحتمل .. ومرة أخرى .. ماذا فعلنا؟!

لجأ وفدنا ، وفي غاية التهذيب والأدب ، إلى (النباتيات) في عناية دقيقة ، لكي لا تتسلل إلينا نوعيات مُحَرَّمة أو تثير الغثيان من الحيوانات الحية التي تتراقص أمامنا في الفاترينات الزجاجية المنصوبة في بهو الطعام!! وفي النهاية اكتشفنا أن لدينا حلين .. الأول اللجوء إلى الخزين الاستراتيجي من أكياس المعجنات (كليجة وخفيفي) جلبها



سوق الصناعات المقلدة في غوانجو .. الحاجة القيمة بثمن بخس !!



الجلوس عند ممرات السور العظيم بعد مشقة المشي الطويل

اللاعبان حيدر عبيد ورياض مزهر من بغداد ، مستفيدين من تجربة مريرة في زيارة سابقة إلى الصين ، والحل الثاني اعتماد البطاطا غذاءً رئيسياً في الإفطار والغداء والعشاء .. وبين الوجبات!! الصينيون أبدوا دهشتهم العارمة من هذا التوجه نحو البطاطا في حين أنهم يوفرون ما لذ وطاب من أكلات الحيوانات الطائفة والزاحفة والماشية!!

كانوا يحيطون بنا مع كل وجبة وقد فتحوا العيون الضيقة دهشة وانبهاراً من هذه القدرة العراقية على التهام المعجنات والبطاطا ، ولم يحاولوا الإبحار في عقولنا وعيوننا وأمزجتنا وتقاليدنا وموروثنا ، لمعرفة السبب .. غير أن السيد (إي إي وو) وهو المترجم الصيني الذي رافقنا - كما أشرت من قبل - والذي كان (يرتكب) التحدث باللغة العربية ، قال لنا إن صحفياً رياضياً يعمل في جريدة شهيرة سيثير الأمر بعد أن أصيب عدد من لاعبيننا بالإسهال نتيجة التهام كميات مفاجئة من المعجنات الحلوة والبطاطا ومعها الشراب المختلفة ، من باب استطعام ما يتم التهامه ، وذلك لاكتساب سعرات حرارية بديلة لتناول ما يجب من اللحوم!

وجاءنا المترجم في اليوم التالي بالصحيفة التي حملت عنواناً فيه روح الدعابة ، يقول : (أزمة بطاطا في شنغهاي) .. وفي المتن والتفاصيل إشارة إلى أن المنتخب الأولمبي العراقي سيتسبب في أزمة من هذا القبيل ، إذا كان يرفض كل طعام ما عدا البطاطا!!

المهم أن المترجم الذي عاش في القاهرة دارساً في الأزهر وهو يشبه إلى حد عجيب الممثل الكوميدي الراحل إبراهيم

سعفان .. صار يغني لنا عند كل وجبة وبلهجة تحاول أن تكون مصرية :

(عالبساطة البساطة .. يا عيني عالبساطة .. تغديني جبني وزيتوني .. وتعشيني بطاطا!!) ..

وقد استلهم عبارته من الأغنية الشهيرة للراحلة صباح!!

وكان المترجم مستمتعا في أداء الكلمات ، وكان لاعبونا وكادرنّا التدريبي (نزار أشرف - كريم محمد علاوي - كاظم ناصر) يتفاعلون معه ، ويرددون الأغنية كاملة ، ليس من باب التطريب ، وإنما للتعبير عن مصير (غذاي) لا فكاك منه!!

* * *

أين يمكن أن تختتم كل زيارة إلى الصين؟؟ من واقع التجربة الشخصية وبعد خمس زيارات عملية إلى ديار التنين .. ليس أمامك اختيار أفضل من اثنين .. الأول ساحة تيان آن مين التي تبلغ مساحتها أربعمئة وخمسين ألف متر ، وهي تستوعب مليون شخص ماشيا أو متنزها في منتهى السهولة والارتياح ، وفيها يربض القصر الإمبراطوري الشاهق العجيب الذي يسحرك بمجرد الاقتراب منه .. أما حين تدخل إليه وتدور في معامله فسترى المعجزة في البنيان والتي حققها بنو البشر قبل مئات السنين!

أما الاختيار المثالي والنموذجي والذي يمثل بحق روعة الختام ، فهو الذهاب إلى سور الصين العظيم الذي يُعدّ معجزة أخرى لا يمكن لبني البشر أن يجسدوها بمثل ما جسده الشعب الصيني .. الذهاب إلى هناك يتم بإحدى وسيلتين .. الصعود إلى منطقة السور وقلاعه بالتلفريك ، أو الصعود مشيا على الأقدام .. وقد أصبّت بالوهم الشديد عندما اخترت الصعود مشيا .. إنه طريق صعب مُهلك يستنزف طاقتك وأنفاسك وأعصابك .. ولكن حين الوصول إلى السور تنتهي العذابات والمتاعب ، وتدرّك في نظرة من على السور إلى ما يحيط بك ، أن الزيارة قد حققت غاياتها!



علي رباح في مطار شنغهاي مع هاشم رضا وكاظم حسين وهيثم كاظم والمعالج عبد الله



محارب قديم يستقبلك عند إحدى قلاع السور



أمام جسر ليبر الشهير في سيدني لدى الوصول إليها

الطواف في وجه آخر للجنة : أرض الجنوب!!

إلى بلد الجنوب .. استراليا .. كان السفر أو - الأصح - التجوال الطويل الذي امتد عبر الساحل الذهبي التي تتوزع عليه المدن الشهيرة ، كأنها نقاط من الضوء المبهر الذي يطرز قطعة من القماش الحريري المتجانس ، ناعم الملمس ، والذي يستدرج العين ثم يتسلل إلى أعماق الروح!

المهمة كانت تغطية نهايات كأس آسيا في بلد ليس معلوما لدى كثير من الشعوب في أصقاع الأرض المختلفة والتي لم تتمكن من الوصول إليه .. لقد وضعت الجغرافيا بلمستها الحادة الراسخة هذا البلد مترامي الأطراف في جزيرة تتشكل في هيئة قارة نائية معزولة يصل إلينا منها الخبر والمعلومة ، ولم تصل إلينا صور كثيرة عن الكيفية التي تسير فيها الحياة ، فكان لا بد من التخيلات التي هيمنت على الفكر عبر هذه المسافة الطويلة.

كان محظوظا فعلا من يكتب له السفر إلى هناك كي يرى قطعة من الأرض ترفل بالهدوء والسكينة والتعايش ، تنعم بنضارتها ومواردها وموزاييك الشعوب التي لجأت إليها هروبا من واقع أو بحثا عن وسيلة أو أسلوب عيش أو دخولا في مغامرة محسوبة أو غير محسوبة النتائج ، بينما العالم يكسر بعضه بعضا في قارات أخرى امتدت إليها يد الشيخوخة ، ونضبت فيها الموارد ، وقصرت فيها النظرة الإنسانية!

و(عبارة سفر طويل) جربتها مرارا في رحلتي العملية ، لكن الوصول إلى أستراليا يعني قطع مسافة زمنية تقرب من خمس عشرة ساعة ، يضاف إليها حاصل جمع السفر من بغداد إلى الدوحة ثم أبو ظبي ثم سيدني لدى الذهاب ، على

أن أقطع المسافة نفسها وأحط الرحال في المحطات نفسها لدى الإياب!

* * *

كان الوصول إلى سيدني مقترنا برغبة عارمة مني في أن أعيش اللحظة والتفاصيل .. إنه عالم جديد أو أرض عذراء بالنسبة لي تغري في أن تفتح حواسك على كل ما يحيط بك!

ولكن تسارع المواعيد والتدريبات والمؤتمرات الصحفية والمباريات ، حتم علي سرعة الانتقال ، فلم تكن لي سوى ساعة واحدة في العاصمة ، انتقلت بعدها جنوبا إلى مدينة صغيرة كأنها قطعة من الجنة التي تصفها الكتب القديمة .. مدينة وولونغونغ التي تغفو على الساحل الذهبي .. من هناك كان يجب أن أبدأ العمل .. مرافقة منتخب العراق في أول محطة تحضيرية له قبل خوض المباريات ، وقد كانت لنا مباراة ودية تجريبية واحدة مع إيران خسرتها بهدف وحيد ، عدت بعدها لكي أحزم حقيبتي واتجه مع فريق العمل الأسترالي إلى بريزبن حيث كانت تنتظرنا مباراة أولى مع الأردن تمثل بداية المشوار الواعد في البطولة ..

هل أقول إن متاعب السفر وبُعد المسافات والتنقل جنوبا ثم شمالا وبالعكس قد بدأت مبكرا في رحلتي ، أم أن من حسن حظي أن اتجه شمالا وأقطع مسافة (500) كيلومترا بين وولونغونغ وبريزبن؟!

ما زلت احتفظ بالهاجس والرغبة والفضول لأن اتنقل وأن أعيش وأن اتعرف ، وهذه هي قيمة الانتقال من مكان إلى مكان بعيد آخر .. فعلى امتداد الطريق الطويل ، لم أشهد مثل هذا التلون العجيب في تضاريس الطبيعة .. تضاريس تكليلها صنوف شتى من الأشجار .. السيارة كأنها سكين تقطع كعكة خضراء على امتداد البصر ..

انتهت مهمتي في بريزبن بعد مباراتينا مع الأردن واليابان .. ومع احتمال صعودنا إلى الدور ربع النهائي للبطولة بعد



طاقم العمل الذي رافقني في الرحلة .. ملتقى التعاون والإبداع

فوز متوقع على فلسطين في المباراة المقبلة ، كان يتوجب عليّ الترحال مجددا - والتوجه صوب العاصمة كانبرا ، وهنا لابد من التأكيد على أن الموروث لدينا هو أن (سيدني) هي العاصمة السياسية لأستراليا ، بينما (كانبرا) هي التي تحتل هذا المكان والمكانة من مدينة أقدم منها تاريخيا.. المهم أن هذه النقلة تعني قطع مسافة أخرى .. حوالي (800) كيلومترا! متعة كبرى لمن يصل إلى هنا بصفة سائح عقد العزم على أن يكتشف القارة الأسترالية بنفسه ، ولكنها ليست للإعلامي الذي يعتمد على نفسه بكل ما تعنيه كلمة (اعتماد) من عمل على مدار الساعة وملاحقة التدريبات والمباريات والمؤتمرات الصحفية والأنشطة الجانبية ، إلى جانب تأمين الحجوزات في الإقامة والسفر داخل بلد مجهول في كل



الصحافة الإيرانية تتحدث عن مباراتنا الكبرى والانتقام فيها

تفاصيله!

* * *

أحمل لكانبرا - المدينة الراقية التي تبدو أكثر تزمنا من سواها بمبانيها الفارحة وطبيعة أهلها - خصوصيتين في الفرح والعمل الاستثنائي .. الأولى أنها شهدت فوزنا على فلسطين وانتقلنا إلى الدور رُبع النهائي وهذا أمر لم يكن خارج حساباتنا .. والثانية أنها شهدت الموقعة المطرية أو الممطرة مع إيران! أعني هنا الأجواء التي سبقت المباراة بما تشكله من فصول يرقى بعضها إلى الخيال .. حتى أن مؤلفا روائيا لو كلف بكتابة هذه الفصول على النحو الذي جرت فيه ، لن يكون أكثر براعة من الطبيعة وقدرتها في الخلق والإبداع!

في اليوم الذي سبق مباراتنا التاريخية مع إيران ، أبرقت السماء وأرعدت .. كأن السماء جمعت لنا كل السحاب الداكن من كل سقف الكرة الأرضية ، ورحت تصب مداده علينا..

وكان السؤال الذي وجدته ضروريا وحتميا إلى المدرب راضي شنيشل : قل لي يا كابتن .. ماذا قررت؟

- بخصوص؟! -

** الوحدة التدريبية لهذا اليوم؟

- ستجري كل تحضيراتنا وفق السياق الذي وضعته مع الطاقم التدريبي (يحيى علوان - نزار أشرف - عماد هاشم) ..



الامطار تملأ المشهد كله .. فكان الفوز والإنجاز

** وفي ظل هذا الجو المدهلهم المطر الذي لا نرى فيه انفراجا في الأفق؟! -

- أبلغت الجميع بأننا سنتدرب حتى لو حطت السيول على رؤوسنا!

** ولكن المنتخب الإيراني ذهب مبكرا إلى التدريب ، وحين العودة رأيت النفور والضرر على وجوه لاعبيه .. حتى

مدربه البرتغالي كيروش ، كان ساخطا!

- سمعت بهذا ، ولكنهم تدربوا .. نحن علينا أن نتدرب!

** ولكن الجو يزداد سوءا ، حتى أنني اتخيل أن وحدتنا التدريبية ستجري وسط بحر من مياه السيول!

- سنكون هناك جميعا عند الموعد وسنرى - يا صديقي - ما يمكن عمله!

وفي الموعد تماما تحركت حافلة المنتخب العراقي ، وحين وصلنا إلى الملعب ، استدار السائق الأسترالي نحو الجميع وقد ظهرت على وجهه كل تساؤلات الدنيا .. قال : لقد وصلنا .. المشهد أمامكم .. هل أنتم عازمون على النزول من الحافلة فضلا عن إجراء التدريب؟!

كان ردّ المدرب راضي شنيشل حازما قاطعا : سنتدرب ..

ولم أجد حرجا أو تردّدا على وجوه اللاعبين الذين استطلعت الأمر على ملامحهم!

ردّت الطبيعة على إصرار المدرب بزخات عجيبة ومضاعفة ومتواصلة من المطر ، حتى كان صعبا على اللاعبين نقل الكرة من مكان إلى آخر .. وقد كنت أخشى على اللاعبين من هذا المناخ الذي لم يألّفه أحدهم من قبل!

في هذا المشهد ، كنت أجري لقاءاتي مع اللاعبين ، ولم ألحظ تطيّرا أو ضجرا أو تهربا مما يجري .. وبلغة إنسانية عميقة أقول إن هذا المناخ أكسبهم إصرارا عجيبا على خوض المباراة أمام إيران برغبة فريدة في صناعة الفوز والفرح ، وهذا ما حصل في يوم المباراة والذي حققت فيه الشمس انقلابا غير محسوب ولا مقدمات فيه ، فقد أسفرت عن وجهها ، وأرسلت خيوطها الذهبية إلى كل فضاءات ملعب كانبرا الدولي ، وصار في وسع اللاعبين أن يحققوا مبتغاهم ، فكان الفوز بعد لقاء فريد في تحولاته وتبعاته!

* * *

في مساء يوم المباراة ، كان عليّ أن أنهي عملي بسرعة ، وأغادر محل إقامتي متوجها إلى مدينة أخرى .. هذه المرة إلى سيدني وأمامي (200) كيلومترا قبل الوصول والتحضير للمواجهة المقبلة مع كوريا في الدور نصف النهائي! وكانت رحلة أخرى ، تبعثها رحلة لاحقة إلى مدينة نيوكاسل (120) كيلومترا شمالا لتغطية مباراتنا مع الإمارات .. ثم



متابعة حثيثة لمجريات البطولة وتحولات منتخبنا فيها



في وطن الجنوب رأيت صنوفا شتت في منتهى التعايش والأمان

جاءت العودة جنوبا في المحطة الأخيرة إلى العاصمة سيدني حيث جرى الختام بين أستراليا وكوريا الجنوبية .. وكان يجب أن نقوم بالتغطية المكثفة على مدار الساعة ، فهذه مباراة الختام والكأس والتتويج!

* * *

لن تغادر مخيلتي صورة الفرد الأسترالي في كل مكان ذهبت إليه .. أنت ترى صنوفا من البشر ينتمون إلى أجناس وأعراق وشعوب وحضارات مختلفة وربما كانت متقاطعة في كثير من محطات الزمن .. لكنك تجد - وهذا أمر مدهش - لونا من التعايش قد لا تجده لدى كثير من الشعوب التي تنتمي حتى إلى عرق أو جنس أو أصل واحد ، ويفترض أن هموما ومصالح ولغات مشتركة تجمعها عبر آلاف السنين!

لقد فهم المواطن الأسترالي دوره في الحياة تماما .. إنه هنا لكي يعيش ، ولكي يهتم بعائلة ، ولكي يجد مستوى من الحياة لم يجده حتى في بلاده الأم ، ولا بأس في أن يكون همه بعد ذلك أن يبني وطناً أو موطناً ، ومعه كل الحق في كل هذا..

الأمر يستحق فعلاً ، فلقد كانت أطراف أستراليا المتزامية بكل تنوعها الجغرافي والبيئي هي الحضان الذي استقبل الجميع ، وهي المظلة الإنسانية التي يحتمي بها من انتزع نفسه انتزاعاً من أرض أو أصل أو حضارة ، ليحاول العثور على إنسانيته قبل كل شيء!

هذه هي الصورة مكتملة الملامح في أستراليا .. أطياف متباينة ، ووجوه سمر وبيض وحمرة وصفرة وأشكال لا يمكن أن تجتمع يوماً في مكان أو وطن واحد .. ولكن (وطن الجنوب) حقق المستحيل وصار ملاذاً يستحق البذل والتضحية ،

وقبل ذلك يستحق أن يحرص أي فرد فيه على الأمان الذي يستظل به!

* * *

لا يمكن النظر في أي شكل من أشكال السهولة الآن إلى تلك الرحلة الطويلة التي قطعت فيها مئات الكيلومترات في حركة متناوبة جنوب - وسط - شمال - ثم العكس بكل ما يحمله السفر من متاعب وتنوع وذهاب إلى المجهول .. كنت مستمتعا وأنا اتحلّى بكل صبر الدنيا على تحمل المتاعب والسرعة في الحركة والانتقال من بيئة إلى بيئة أخرى مختلفة .. ذلك لأنني كنت أدور في حلقة ليست مفرغة .. كنت أدور في جزيرة وهبها الله كل مقومات الحياة البراقة المدهشة الهادئة .. لهذا كان احتمال المشقة ثمنا تستحقه - بالفعل - أرض الجنوب!



العراقيون في أستراليا احاطونا باهتمام لانظير له



قبل الحادث الدرامي بيوم واحد.. علي رياح مع المدرب سعيد عبد الحسين

دراما الملاكمة على الطريق الدولي !

بعض السفر نافذة للأمل ، ورغبة في الاطلاع ، واكتشاف للمجهول ، وفسحة للترويح عن النفس !
وبعضه ذهاب المرء إلى حتفه ، حين يكون الانتقال من مكان إلى آخر رحلة إلى الجحيم ، وصراعا حقيقيا من أجل البقاء على قيد الحياة !
لقد جربت السفر في أوجهه المضيئة الوردية حتى لو كنت أخوض في صعاب العمل أو التطبّع على عوالم جديدة لم ألفها من قبل ، وكنت في كل مرة مُخيّرا اتخذ قراري وأملك إرادة ذهائي .. وإيائي !
ولكنني في مرات عدة ، كنت أواجه قدرتي واقترّب من حتفي ، وهذا ما حصل بالضبط عند دخولنا العراق من جهة الأردن ، عائدتين من المشاركة في بطولة للملاكمة .. كان ذلك في مطلع شهر تشرين الثاني 1994 ، حين تحوّل المشهد برمته إلى دراما مشبعة بالإثارة والرعب والموت على طريقة الأفلام الأكشن الامريكية !

* * *

عند ظهيرة اليوم الذي أعقب مشاركتنا في بطولة الأردن الدولية بالملاكمة ، كان يتوجّب علينا السفر عائدين إلى بغداد ..

في حقبة الحصار الدولي تلك ، لم يكن السفر بالطائرة متاحا ، وكان طريق بغداد - عمان البري عبر طربيل منفذا وسييلا يستوجب ما لا يقل عن ست عشرة ساعة في أفضل التقديرات .. كان اختيارنا حافلة شركة (الجت) العملاقة التي كانت تعدّ أفضل وسائل النقل البري المتاحة لما تنطوي عليه من راحة للمسافر بالمقارنة مع وسائل النقل البري الأخرى!

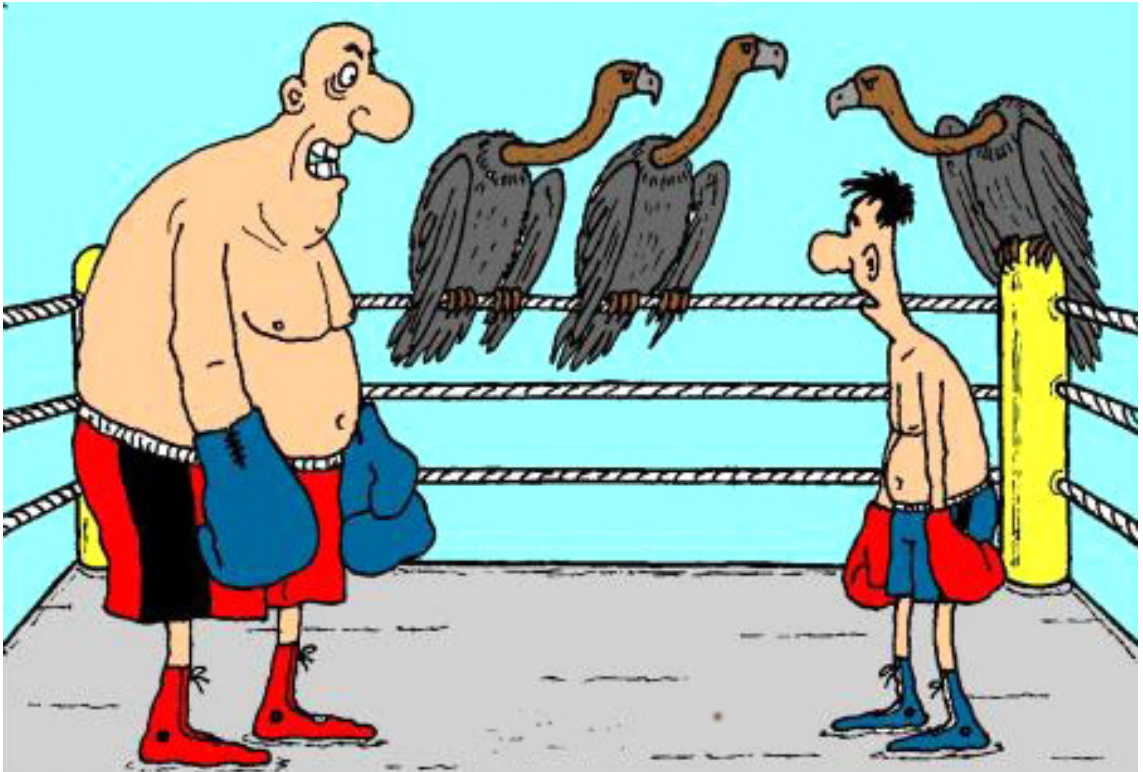
انطلقت الحافلة بنا ، وهي تضم عددا آخر من الركاب بينهم وكيل وزير الإسكان العراقي ، وتجارا ومرضى ومسافرين ، فضلا عن وفدنا الرياضي ، من منطقة العبدلي في عمان .. كانت الحافلة تنهب الطريق نحو منطقة رويشد باتجاه المدخل العراقي عند طربيل .. كان وصولنا مساءً بينما كانت الغيوم تتجمع في ليلة شديدة البرودة ..

وبعد إكمال إجراءات المغادرة عند الجانب الأردني ، كانت لدينا وقفة مماثلة في الجانب العراقي بينما كانت السماء تواصل التحشيد وتعدّ العدة لسيول متوقعة كان البرق والرعد ينبئان بها!

عادت الحافلة إلى مسارها ، وراحت تطوي المسافات باتجاه بغداد .. لكن المقادير كانت تكتب لنا عند أحد المنحنيات على الطريق الدولي السريع كارثة إنسانية لم يعرفها الطريق الدولي منذ إنشائه بداية العقد الثماني!

كنت اتخذ مقعدا خلف وكيل وزير الإسكان يجاورني رئيس الوفد الراحل غازي عبد الصمد رئيس الاتحاد العراقي للملاكمة .. متابع السفر الطويل كانت قد بلغت مني مبلغا فاستسلمت مرهقا - كغيري - للنوم ، وفي نفسي أمل معتاد بقرب الوصول إلى العاصمة متخذا من ساعات النوم وسيلة لاختزال أمد السفر أو هكذا يتخيل المسافر في طريق بري طويل!

عند هذا المنحنى ، وبينما كان أغلب الركاب غارقين في نومهم ، استيقظت في هلع على صياح جماعي فيه صرخات ، ودعاء



كان يمكن أن يتحول وفد الملاكمة إلى وليمة للطيور الجارحة .. هكذا يمكن تخيل المشهد



علي رباح مع سعيد عبد الحسين مع كريم رزاق أيام عملي مشرفاً على الملاكمة في نادي الزوراء

للباري ، وفيه عبارات التوبيخ للسائق ، وفيه بكاء وعويل .. كانت الحافلة في هذه الثواني تفقد توازنها وتخرج عن مسارها في المنحنى العالي الشبيه بالجسر ، لتحلق في الهواء وتسقط في جوف الصحراء بعيداً عن الطريق!

* * *

المشهد الآن على النحو التالي : حافلة كبيرة ترقد مُهشمة على أرض رملية منبسطة بعيداً عن مسار الطريق الدولي .. الحافلة في وضع مقلوب ، سقفها المحطم على وجه الأرض بينما إطاراتها مُعلقة في الفضاء .. عشرات الركاب محشورون داخل الحافلة حيث تكسر زجاج النوافذ ، وحيث يضغط حديد الهيكل المحطم على أجسادهم كأنه سكاكين تنهشها من كل صوب.. لا ندري أين نحن .. وكيف يمكن أن نتسلل إلى خارج الحافلة ، فقد اختلطت الدماء بكل ما حمله الركاب من مشروبات وأغذية ومعها خزانات الوقود التي تكسب محتواها على الجميع بانتظار شرارة ستحرق الجميع .. أنت هنا لا تستمع إلا إلى الأنين وعبارات مثل .. أنقذوني .. إنني أموووت .. الرحمة يا رب .. آه قلبي يتوقف .. رأسي مهشم!

كانت هذه العبارات تتسلل إلى سمعي وأنا أنازع بين الحياة والموت ، لا بل إنني كنت إلى الموت أقرب ، فما زلت محشوراً داخل الحافلة يتدفق الدم من جسدي ولا أقوى على تحريك أي عضو منه .. لكنني كنت أشعر بأن يداً امتدت إلي كي



صورة جامعة لأبطال الملاكمة العراقية

تسحبني عبر الفسحة المتبقية من النافذة القريبة مني .. وفي بقية ضئيلة من الوعي كنت استمع إلى أصوات أعرفها جيدا .. إنها أصوات الملاكين ، وبالكاد كنت أحرك رأسي كي اتعرف على الأجساد الممددة المحيطة بي بينما كانت السماء تنزف على طريقها أمطارا متواصلة تزيد نزفنا ووجعنا وانتظارنا للموت القادم .. لا محالة!

الوقت يمر .. ولا أسمع إلا حركة متناقلة .. أرى بقايا أشباح تتحرك من حولي .. يبدو أنهم بعض الركاب القادرين على الوقوف يحاولون أولا إخراج الناس من بين الحطام الذي تحولت إليه الحافلة ، حتى أن مقاعدها اشتبكت مع الأجساد ولم يعد في مقدورك التمييز في ليلة غاب عنها القمر بين الأجساد المتناثرة وبين جلود المقاعد!

* * *

وكان السؤال : هل يمكن أن تحضر الدعابة هنا وأنت في هذا المشهد العصيب في جوف الصحراء ، وتحت ستارة الليل وسيول الأمطار ، حيث لا يتبقى لك من الأمل إلا رحمة الباربي؟! واضح أن روح الدعابة كانت تستغرقني حتى في لحظات الموت هذه .. إذ كان جسد مدرب الملاكمة الشهير سعيد عبد الحسين ممدداً بجواري ، وهو لا ينقطع عن الشعور بالألم والتعبير عنه ، ولا عبارة على لسانه سوى : (آخ يا به رجلي)! وجدتني على الفور أجيبه وأنا أجاريه في الألم متسائلا : يا رجل منهم؟! والدعابة هنا أن هذا المدرب الكبير لديه رجل طبيعية وأخرى اصطناعية!!

* * *

كان الوقت يمضي والنزف يستمر ، والآهات تتوالى في جوف الليل .. عند هذا المفترق لا يحضر في ذهنك أي مشهد سوى

الطريقة التي سيعرف بها الناس أن هنالك حافلة عملاقة انقلبت في عمق الصحراء ولا يمكن الاستدلال عليها بعد أن تدرجرت وابتعدت عن الطريق الدولي بعشرات الأمتار ودخلت في أرض منخفضة كأنها الوادي بين مرتفعين ، وكانت ساعات الليل المتأخرة عائقا آخر ربما يحول دون تأمين أي سبيل للإنقاذ في الوقت المناسب ، فمن المعلوم أنه في هذا التوقيت لا يمر إلا عدد محدود من السيارات المتفرقة المتباعدة ، بينما كنا نهمل أين نحن بالضبط!

هنا كانت البطولة الإنسانية - الرياضية الحقيقية للملاكمين العراقيين في هذا المشهد السوداني . فمن قلب الأوجاع والتأوهات واختلاط دماء الأجساد والجثث ، نهض خمسة من ملاكمي العراق ليكتبوا قصة الأمل حين كان الموت يحيط بنا إحاطة السوار بالمعصم ..

سارع الأبطال مجيد كيطان وحسين هادي ومحمد غالب وأحمد فليح وناجي عباس إلى انتشارال الأجساد والجثث ، والأصعب سحبها إلى خارج حطام الحافلة ..

.. الشيخ قبل الفتى ، والمرأة قبل الرجل ، في ملحمة إنسانية ضاعت فيها الإثرة وغلب فيها الإيثار حتى أنقذوا من يمكن إنقاذه ..

بعد أربع ساعات من الضياع كأنها دهور، استدلل الملاكمون إلى الحل وسط الظلام والمطر والبرد الزمهرير .. بادروا إلى التسلق حتى صعودوا إلى أعلى الحافلة لينتزعوا إطاراتها ، ثم دفعوا هذه الإطارات نحو الطريق الدولي وقطعوه بالإطارات وباشروا إشعال النار فيها لكي يجبروا السيارات القليلة المتباعدة والمنطلقة بسرعة شديدة على التوقف والمساعدة في الحفاظ على البقية المتبقية من أرواح الناس ، رياضيين وغير رياضيين ..

*** قصة الساعات العصرية على طريق عمان - بغداد ***

ملاكمونا الأبطال .. قدوة في الأداء الرياضي والانتفاء الإنساني

من السهل أن يوصف الحدث من قبل المرء الذي يتعرض .. لذا يحاول أن يتناساها ليحوم الرهبة القاتلة .. ويعيد إلى حادث عابر .. ولكن من الصعب أن يوصف من قبل أنفاسه التي تقطعت مرات ومرات في تلك اللحظة .. إلا الشخص الذي عاش لحظات الموت في الأمهات ومراتها .. الزميل العزيز علي رباح حيث أصر أن يسطر بقلمه لحظات الصعوبة هنا ليس في نقل ماحد بل الصعوبة تكمن في الموت وهو يصارع الآلام التي تطوقه .. فكانت المفردات لحظات التفكير التي رافقت من تعرض له .. لأنه يبقى التالية من على سرير المرض .. والذي يدعو الله أن يشفيه ويعيشها ذاتيا في كل لحظة .. بل في كل جزء من تلك اللحظة ..

● رياضة ●

فتية العراق ليكتبوا قصة الأمل حين كان الموت يعني الخاتمة التي كتبها القدر في هذا الحادث المروع ويسارع الفتية « مجيد كيطان ، حسين هادي ، محمد غالب ، أحمد فليح ، وناجي عباس » إلى انتشار الجثث والأصعب سحبها من السيارة .. الشيخ قبل الفتى ، المرأة قبل الرجل ، في ملحمة إنسانية ضاعت فيها الإثرة وغلب فيها الإيثار حتى أنقذوا ما يمكن إنقاذه . وبعد أربع ساعات كأنها دهور بادروا إلى قطع الطريق السريع باطارات أحرقوها لكي يجبروا سير السيارات على التوقف والحفاظ على البقية الباقية من أرواح الناس ، رياضيين وغير رياضيين ثم أبوا الذهاب إلى المستشفى في الرطبة ومكنوا إلى جانب السيارة متحملين البرد الشتائي « الزمهرير » حفاظا على ممتلكات الركاب وأبوا أن يكونوا في طليعة المعالجين . وتطول القصة وتتسع معانيها الطافحة بالإنسانية . ولكن إبطالا كؤؤلاء أحق بأن يتألوا وساما ليس كمثلهم وسام . فأي اعتبار يمكن أن يوضع لوسام رياضي أمام فعل خلق الأمل خلقا لدى بقايا الأرواح في صحراء مقفرة ؟ .. ولتبارك يا وطني ابتناك الإصلاء الذين لم تهتز ضمائرهم وأخلاقهم في ميدان يكون فيه للمرء الكثير من الحق أن يؤمن بحياته قبل أن يسعى إلى انتشال غيره .

● علي رباح ●

٩٤ / ١١ / ١٧

رقدت في المستشفى شهرا كاملا أروبي فيه رعب الساعات القاتلة

اضطرت سيارات المسافرين الصغيرة القادمة من بغداد إلى التوقف أمام سد عال من النيران المشتعلة ، ثم ركب بعض الملاكمين معهم للذهاب إلى مستشفى مدينة الرطبة الذي قيل إنه يبعد بمسافة سبعين كيلومترا عن مكان الحادث!

مشكلة أخرى لم تجد الحل وهي الانتظار المضاعف ، بينما كان النزف يستمر ، ومن كتبت له السلامة بجسد ممزق ، كان مع مضي الوقت ينزف ويستنفد دمه ويفارق الحياة!

بعد ساعتين ، لاحت بوادر الإنقاذ .. جاءت حافلتان كبيرتان ، وباشرتا نقل الجميع إلى المستشفى .. كان واضحا أن إصابتي بليغة ، فبين الحياة والموت وضعني أربعة ملاكمين على إحدى البطانيات ثم حملوها من أطرافها الأربعة حيث وضعوني في ممر الحافلة خشية أن أصاب بالمزيد من الإصابات والكسور!



مازال سعيد عبد الحسين يتألف بعطائه في عالم الفن النبيل

لم تنته دراما الطريق الدولي السريع عند هذه الحدود ، فقد أبى بعض الملاكمين الذهاب إلى مستشفى الرطبة لتلقي علاج لإصاباتهم وقرروا المكوث إلى جانب حطام السيارة حفاظا على ممتلكات الركاب ، في مواجهة نادرة مع سيول الأمطار والبرد الزمهرير!

انتقل المصابون والجرحى ، إلا بعض الملاكمين ، إلى مستشفى الرطبة ، وهناك كانت الأخبار السيئة تتوالى .. اكتشفنا أن هناك من فارق الحياة من الركاب عند وقوع الحادث مباشرة ، بينما لفظ بعض آخر أنفاسه في المستشفى .. ثم وزعت البقية الباقية من المصابين على مستشفيات بغداد بعد يومين من الحادث .. ولأن إصاباتي بليغة بينها كسر عظم الترقوة من الجانب الأيسر لصدري ، فقد طلبت الذهاب بي إلى جناح الكسور الخاص في مستشفى اليرموك حيث كان يتوجب علي مواجهة أصعب شهر في حياتي كلها!

كان الكسر في عظم الترقوة يستدعي النوم على جهة واحدة طوال شهر كامل من دون أدنى حركة ، كشرط وحيد للالتئام وتماسك طرفي عظم الترقوة!

لم يكن أمامي سوى الامتثال لأوامر الطاقم الطبي ، كي يستعيد (الترقوة) عافيته ، فاسترد القدرة على الكتابة بيدي اليسرى ، وأضع هذه الدراما بكل فصولها العصبية على الورق!

* * *

على فراش المستشفى كنت أروي للأهل والزلاء والزائرين ما جرى .. نقلت الصحف العراقية والعربية تفاصيل رحلة العودة المميّنة ، وأجرى المذيع الكبير حسين حافظ مدير إذاعة بغداد حديثاً معي على مدى ساعة كاملة من ردهة المستشفى ، لقي اهتماماً كبيراً ، بينما كتبت صحفيّتي (القادسية) وهي تقدم روايتي للحادث تقول:

(من السهل أن يوصف الحدث من قبل المرء الذي يتعرّض إلى حادث عابر .. ولكن من الصعب أن يوصف من قبل الشخص الذي عاش لحظات الموت في آلامها ومرارتها ..

الصعوبة هنا ليس في نقل ما حدث ، بل الصعوبة تكمن في لحظات التفكير التي رافقت من تعرّض لكل هذا الألم والوجع .. لأنه يبقى يعيشها ذاتياً في كل لحظة ، بل في كل جزء من تلك اللحظة.. لذا يحاول أن يتناساها لمحو الرهبة القاتلة ، ويعيد أنفاسه التي تقطّعت مرات ومرات في تلك اللحظة)!

* * *

أظن بعد مرور 26 سنة على تلك (الدراما) أن صحيفتي قد أنصفتي بما كتبت .. فالحدث جلل حتى لو كان على سبيل السفر .. فهو يفوق حتى الخيالات الخصبّة الجامعة للمشاهير من كتاب السيناريو!



منتخب العراق بطولة اسطنبول الدولية عام 1988 .. كنت هناك



فريق عمل الدكة العشائرية بعد النجاة من المذبحة .. لا يظهر السائق (مارادونا) في الصورة لأنه تولى التقاطها

دكة عشائرية في مومباي !!

أن النسبة الغالبة من الأفلام والمسلسلات التي تصل إلينا من الهند ، إنما يتم انتاجها في مدينة مومباي الساحلية الساحرة ، لكن ما لم أدركه يوما أنني سأكون طرفا في مشهد من صناعة الواقع يقترب كثيرا من مشاهد الإثارة الهندية المعهودة في بوليوود!

كنت مع فريق العمل الهندي الذي يصحبني ، في الطريق من مدينة غوا وهي المكان الأكثر روعة وبهاء في الهند لما تضمه من جاليات أوروبية ، فضلا عن امتزاج العرق الهندي بالبرتغالي منذ مئات السنين لكي ترى بأعينك هناك مظاهر للحياة والسياحة لن تجدها أبدا في مكان آخر من شبه القارة الهندية ..

كان فريق العمل مؤلفا من المصور غوي ، وابن عمه روبندور وهو المساعد ، وكان ثالثنا رامن السائق الذي ينتسب بصلة عائلية للمصور وابن عمه ، إذ أنه متزوج من قريبة لهما .. ملامح المصور والمساعد اكتسبت الشكل الهندي المعهود الذي وصلنا منذ الاحتلال الإنكليزي للعراق وصولا إلى قناة بوليوود التي تبث أفلامها ومسلسلاتها على مدار الساعة ، في بيتنا .. وهذه مسألة مزمنة أخرى أعاني منها!

الاختلاف هنا هو السائق الذي يشبه في الشكل نجم الكرة الأرجنتيني مارادونا .. قصير .. ممتلئ .. رأسه كبير مدور .. كث الشعر ، سواده كان عجيبا وقد كنت اتساءل عن نوعية الصبغ الذي يستعمله لشعره ، والأهم أنه أمضى معنا كل أيام المهمة مرتديا قميص نابولي القديم أيام مارادونا .. ربما من باب التذكير بالشبه الذي يربطه بالنجم الساحر الأرجنتيني!

* * *

انطلقنا في ساعة صباحية مكبرة من مدينة غوا حيث كنت أقوم بتغطية نهائيات ناشئي آسيا عام 2016 والتي توج منتخبنا بطلا لها .. وكان من المفترض أن أصل إلى مدينة مومباي في ساعة متأخرة من الليل ، ذلك لأن المسافة بين المدينتين تبلغ ستمائة كيلومترا ، تمرّ في معظمها بالطرق السريعة الفسيحة الممتدة على طول البصر ، ولكن بعد الخروج من مدينة غوا السياحية ودروبها الضيقة عند الضواحي والتي لا تتسع إلا لسيارة واحدة ، أي أنه من المستحيل تماما أن تمرّ سيارتان متقابلتان في الوقت نفسه من الطريق الضيق الزراعي هذا ، فكان الحل أن يلجأ أحد السائقين إلى المبادرة أو التضحية أو التحلي بالذوق ويميل إلى الجانب الترابي المحاذي للشارع المُعبّد ويتوقف هناك حتى تمرّ السيارة القادمة ، ثم يعود مجددا إلى الطريق الرئيس ويواصل السير انتظارا لسيارة قادمة أخرى ، ويتحلّى أحد السائقين بالذوق ويتنحى جانبا من أجل انسيابية السير!

ولسوء الحظ حتما ، كان سائقنا شرسا عنيدا لا يخشى في سلوكه لومة لائم .. هذا النمط من السلوك ظهر فجأة في هذه الرحلة الطويلة .. فحين كنا نشقّ الطريق ذا الرواق الوحيد بهدوء وتأنٍ ، وكنا مجبرين على ذلك ، حدثت المواجهة التي كنت اتساءل مع نفسي عن إمكانية حدوثها بين السائقين!

قابلتنا سيارة كبيرة من نوع تاتا القديمة وهي محمّلة بالركاب القرويين وعلى سطحها احتشد بعض آخر من الركاب الذين لم يجدوا مقعدا داخل السيارة ومعهم تكدّست البضائع وكثير من الحيوانات! كان هذا الموقف يتطلب تفهماً من أحد السائقين لكي يسهل المرور على كليهما .. وما حدث أن سائق التاتا أصّر على أن



الطريق الزراعي الذي كاد يشهد المذبحة

الألوية في المرور له ، فيما ركب سائقنا رأسه وانتزع منه أنهن ما فيه وهو دماغه ووضع بدلا منه حجارة ، ليرفض الوقوف جانبا ، وكان يرى أنه الأحق في المرور!

تطور الموقف على نحو دراماتيكي بعد لحظات ، حين ترجل سائق الحافلة الكبيرة واتجه نحونا وهو يردد عبارات في اللغة الأردنية كانت تتسم بالتشنج وربما السباب وما يتبعه .. هكذا فهمت من نبرة الصوت ، وتعبير الوجه ، ولم أفهم كلمة واحدة!

لم ينتظر رامن في مقعده ، وعلى الفور ترجل هو الآخر لملاقاة السائق الغريم عند منتصف المسافة حيث يمكن أن تتطور الأمور بسرعة إلى ما لا توصف أو تحمد عقباه!

في هذه اللحظات كنت أجلس في المقعد الخلفي ، لا ناقة لي ولا جمل في ما يحدث ، أحاول الاسترخاء ومتابعة المشهد حتى نهايته ، لأرى أيّا من السائقين سيتخلى عن صلفه لكي تمر السيارتان بالتعاقب في نهاية الأمر ..

شدّ السائقان قميصيهما على نحو عنيف .. كان واضحا أننا إزاء معركة فردية ستنتهي حين يتدخل الخيرون لإصلاح ذات البين .. لكن المصور والمساعد اللذين كانا برفقتي وهما قريبان لسائقنا ، ترجلا بسرعة واشتبكا مع سائق الحافلة ، وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان أبدا .. حدث ما كنت رأيته من قبل في عدد من الأفلام الهندية التي تروي قصة نزاع تدور وقائعه في الريف!



بأعناق السباح والحلي في الهند .. منتهى الشطارة



صادف عيد ميلادني هناك ، فجعلوني مهراجا

رأيت جموعا من أماكن وزوايا متفرقة في المشهد وقد خرجوا من أكوأهم المتهاكة وقد حملوا الهراوات والسكاكين الصغيرة والمعاول والمطارق وكل ما تمكنوا من حمله ، واتجهوا إلى موقع المعركة!

لم يكن صعبا أن اكتشف أن سائق الحافلة الكبيرة ينتمي إلى هذه القرية ، وله فيها أهل وأقرباء وأصدقاء ، وأن هذه الجموع الزاحفة قد هبّت لنصرته بكل ما تيسر لها من أسلحة موعلة في القدم ، لكنها شديدة الضرورة والأهمية في نزاع كهذا!

تدخل أهل الخير لوقف مجزرة كانت ستحصل .. إذ تكفل الركاب بالوقوف بين الأغلبية التي كان يتمتع بها سائق الحافلة والأقلية التي هبّت لنجدة رامن .. بعد دقائق قليلة من الحوار الذي اشترك فيه الجميع واهتزت فيه الرؤوس كثيرا للدلالة على الوفاق والتراضي .. اتجهت الجموع نحو سيارتنا ، وقد كنت الشخص الوحيد في داخلها!

كان واضحا أن المصور ومساعدته والسائق قد أخبروا الكثرة المهاجمة وركاب الحافلة أن معهم ضيفا أجنيا وأنه لا يجوز أن يجري كل هذا أمام ناظره .. لكن ما حدث بعد ذلك خرج تماما عن إطار تخيلاي أو أوهامي!

جاء الناس وأحاطوا بالسيارة ، وكانوا ساخطين .. بعضهم يدقّ على زجاج النوافذ بقوة تعبيرا عن غضب لم أفهمه ، ولم أكن أملك سوى الابتسام لامتصاص غضب مجهول ، وكانت ملامح وجهي تبعث إلى الغاضبين برسالة التعجب ، فقد ارتفع حاجباي وفتحت عينا على اتساع وأفردت يديّ الاثنتين للدلالة على التساؤل!

نجح بعض الخبيرين في إزاحة الجمع الساخط عني وعن السيارة ككل ، وعاد سائقنا إلى مقعده ليتنحى جانبا مفسحا المجال أمام الحافلة وهو الممتن بعد أن خسر المواجهة ، وجاء بعده المصور والمساعد وهما يفركان أيديهما للدلالة على الاستغراب ومعه بعض المرح والسرور!

سألت المصور غوي عن الجزئية المتعلقة بي من المعركة ، ولماذا أحاط أصحاب الهراوات والسكاكين الصغيرة بي ، بينما أنا لم أكن طرفا في كل الذي جرى وآثرت البقاء بعيدا عن النزاع الهندي - الهندي!

كان جواب غوي مدهشا : لقد افترض هؤلاء أنك السبب الرئيس في كل ما جرى .. فحين أخبرتهم أن معنا ضيفا ولا يليق أن نتنازع أمامه ، تساءلوا عن هويتك ، فأخبرتهم بأنك (أجنبي) ، وقد اتجهوا إليك من منطلق أن كل أجنبي هنا هو بريطاني الجنسية!

وكان سؤال : وماذا كانوا يقولون عني ؟!

غوي : قالوا .. دعنا نصفي حسابنا مع هذا الأجنبي المحتل!

أدركت بعد الذي أخبرني به المصور ، أن أهالي هذه القرية الزراعية لم يغادروا بعد فكرة أن كل أجنبي هو بريطاني ، وأن كل بريطاني لا بد أن يذكرهم بأقصى وأطول احتلال!

حمدت الله وشكرته على نجاتي من المذبحة وعلى سلامة فريق العمل ، وبعد وقفات متعددة على الطريق الزراعي أملت لها نتائج المعركة على سلوك السائق الذي صار ودودا مهذبا، أمسكنا بالطريق السريع الواسع ، لننقل وجهة تفكيرنا إلى مومباي حيث ينتظرننا عمل كثير في برنامجنا الوثائقي عن هذه المدينة العجيبة!



عزومة عاجلة بعد الدكة العشائرية

المحتويات

5	1- الإهداء
7	2- المقدمة
10	3- كوريا الشمالية : كل شيء ممنوع .. إلا مديح الزعيم!!
21	4- الأرجنتين: الأصباغ الزاهية .. سلاح المسحوقين للهروب من فقرهم!!
34	5- جنوب أفريقيا: هذه المرة .. خوض التحدي في عرين الأسود!!
40	6- مصر: البحث عن جذور أم كلثوم الكروية!!
50	7- البرازيل : غارة – بالإكراه – على تجار المراهنات!
56	8- تركمانستان : جدل عقيم حول (فُدسية) ألف ليلة وليلة!!
63	9- الفلبين: وجبة غداء فاخرة .. فوق فوهة البركان!!
70	10- اليابان: وقعَ يوكو موتو في المحذور .. وتأخرَ خمس دقائق!!
79	11- تايلاند: المياه الآسنة .. لتطهير النفس البشرية!!
92	12- إندونيسيا: العار أن يخسر الديك .. إنها مسألة كرامة!!
102	13- كوريا الجنوبية: منعتْ حلوى الفستق للكوريين .. على قارعة الطريق!
112	14- الجزائر: نجمة قطبية توَجَّهَ فوهات البنادق!!
119	15- طاجكستان : الطائرة في خطر .. والكاميرا تستوجب الثبات!!
126	16- بنغلاديش: فوق جبال هماليا.. والسبب طيور مشاكسة!!
132	17- الكويت: جلسة طرب على وقع المعركة !!
139	18- فيتنام: ممنوع من الدخول .. إلا بتأشيرتين!!
146	19- قطر: حين تطاير الرذاذ الكلامي .. كنت أنا الضحية!!
151	20- الصين: عرفتْ الكورونا .. قبل 21 سنة!
160	21- أستراليا: الطواف في وجه آخر للجنة : أرض الجنوب!!
167	22- الأردن: دراما الملاكمة على الطريق الدولي!
174	23- الهند: دكة عشائرية في مومباي!!
179	24- المحتويات

